

قمبيز

والزهرة السمراء

رواية

عبد الرحمن بكر



مكتبة بجزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : قمبيز والزهرة السمراء

المؤلف : عبد الرحمن بكر

رسوم داخلية : د. ياسر نصر

رقم الإيداع : ٢٠١١/٢١٠٤٣

الطبعة الأولى ٢٠١١



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى ابنتي نورزاد، حلمي
الأكبر، وزهرتي اليانعة،
وابتسامة الحياة، لتفخر يوماً
أنها امرأة وتعلم أن من النساء
من زلزلوا عروشاً، وأنقذوا
شعوباً، عندما أدركوا حكمة
الله في أن جعلهم النوع الأضعف
عندما يريدون، والأكثر
صموداً عندما يحبون.

عبد الرحمن بكر

obbeikan.com

قبل البداية



كان غزو «قمبيز» لمصر عام (٥٢٥ ق.م) من أسوأ الأحداث التي تعرضت لها البلاد، فقد أعد لحمته كل ما استطاع من قوة، وجعل من فلسطين قاعدة لتحركه نحو مصر، وعندما عسكر بالقرب من مدينة غزة كان يخشى أن يفقد نصف جيشه تحت رمال الصحراء بسبب قلة توافر الماء، ولكن الأقدار جعلت رجلاً إغريقياً يدعى «فانيس» (كان قائدا لفرقة من المرتزقة الأغريق المواليين لجيش مصر)، ينحاز إلى جيش «قمبيز» ويخون الفرعون «أبسماتيك الثالث».. فوشى فانيس بخطط المصريين التي أعدوها لمقاومة الحملة، كما استفاد جيش الفرس بخبرته في مسالك الصحراء، وسهل لهم الاتصال يبدو سيناء وعقد معهم العهود والاتفاقيات لإمداده بالماء و المئونة طوال رحلته عبر الصحراء «وأكملت الخيانة دورها في وصول الفرس إلى عرش مصر حين قام «وزاخرسن» قائد الأسطول المصري بخيانة ملكه وشعبه، وفتح المعابر للفرس مقابل حفنة من الذهب، وبعض المناصب الدينية، والاجتماعية التي كان يحلم بها، فدخلوا مصر براً وبحراً.. وأسر الملك الفارسي «قمبيز» فرعون مصر، وقام بمحاولات رهيبة لإذلاله، لكن الشعب المصري مازال وسيظل لا يخضع لغزو، مهما بلغت شدته، ولا يجني هامته لغاديز .

obbeiketan.com

شخصيات الرواية



«قمبيز»: الملك الفارسي الشاب الذي غزا مصر، وطمح في أن يمتلك العالم.

«نيتيس»: الأميرة المصرية التي تزوجها قورش ملك الفرس وأنجب منها قمبيز

«داشيتا»: الأميرة المصرية التي جاءت من بلاد كوش لنتقم لمقتل أهلها.

«حاروز»: ابن ملك بلاد «كوش» السودان المحب لديشيتا..

«أبسمايك الثالث»: ملك مصر الذي أراد قمبيز أن ينتقم منه ويعمل على إذلاله.

«أحمس أماسيس»: الفرعون الذي تسبب بغدره في احتلال الفرس لمصر، ومات قبل دخولهم إليها، وهو أيضًا والد أبسمايك الثالث.

«كنترياس»: الحكيم والمعلم الذي تربى على يديه قمبيز.

«توزوي»: القائد العسكري المصري المخلص الذي دافع عن بلاده.

«وزحارسون»: الطبيب والقائد العسكري للأسطول المصري الذي خان بلاده وفتح المعابر للفرس.

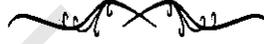
«فانيس»: قائد جيش الإغريق الموالي لمصر، والذي انسحب بجنده وقت الشدة، وعاون جيش الفرس على اجتياز الصحراء.

«ميجا»: الوزير الأعظم لملك الفرس، وهو رجل حاد الذكاء شديد المكر.

«نستانس»: ملك بلاد كوش، وأبو «حاروز» الذي تحدى ملك الفرس.

«راجيت»: وصيفة للملكة نيتيس.

«طاهو»: جاسوس من جواسيس الملكة.



«داشيتا» المغامرة



ما زالت تركض هاربة في حقول الليل، تتحرك في رشاقة خيالية، وقوسها يرفرف في يدها، وسهامها تتهادي على كتفها.. كل شيء يلاحقها، أنفاسها اللاهثة تتسابق نحو قارب النجاة.

كان القلق قد استبد بـ«حاروز» وتملك خوفه عليها قلبه الفتي وهو ينتظرها على ظهر القارب المخفي في ظلام الليل، وعيدان البوص، وأزهار اللوتس الزرقاء الطافية على صفحة النيل.

وما هي إلا دقائق وظهرت «داشيتا» وهي تشق الريح كالغزال النافر مندفعة نحو حافة النهر، بثوبها الأبيض الناعم الفضفاض، وحذائها الجلدي الأملس الذي تلمع نقوشه الذهبية، فأضاء «حاروز» شعلته لتستدل على مكانه، وارتفع بقامته السمراء الفارعة وهو يشير إليها بيده، وفي لحظات كانت تقفز في جوف القارب وهي تطلب منه أن يطفئ النار كي لا يعرفوا مكانها.

جدف «حاروز» بكل ما أوتي من قوة، أخذت ضربات مجديه تمزق ما تبقى للنهر من سكون .

لم تكن حياته ذات أهمية كبيرة بالنسبة له، لكن حياتها تساوي عنده الكثير، ما زالت الأصوات والرماح الطائشة تتبع أثرها.. وراح القارب يشق الماء مدفوعاً بشدة التيار وقوة ساعديه، وهو يرسل نظراته الحذرة ما بين الضفة والشاطئ الآخر باحثاً عن

أماكن الاختباء، وسط أعواد الغاب و النباتات المائية الطويلة الطافية على سطح النهر.

مر الوقت وقد خيم على الجو صمت ثقيل.. ولما اطمأن « حاروز » لبعد المسافة واختفاء الأصوات التي كانت تطارده، تنهد مرتاحاً لنجاتها، وبدأ يُخفف من انفعاله ويداعب ماء النيل بمجدافيه.. و كأنها يمحو عنه آثار الضربات القوية بلمسات حانية فرغم كل هذا الخطر كانت تلك الليلة مقمرة سهاؤها صافية..

كم عشق هذا النيل، المنساب تحت ضوء القمر الساحر كأنه نهر من الفضة المذابة يداعب الظلام، ويضفي على الليالي المقمرة جمالا خلاباً، وكم داعبت أنفه رائحة النسيم المُشبعة بعبق الياسمين، وأزهار الفل..

نظر خلسة نحو عينيهما الواسعتين الساحرتين الحزبتين وهذا الخط الرشيق من الكحل الذي ظللهما.

كانت تنظر في قلق نحو بريق المشاعل الخافتة الباحثة عنها و التي بدأت تتلاشى مع بعد المسافة.. رأى الضوء الفضي اللامع ينعكس عليها.. عاش في أحلامه وهو ينطلق بها في هذا العالم الساحر.. و للحظات شعر بأنها ورقتان هائمتان على صفحة النيل الخالد قد فقدتا أي ارتباط لهما بالبستان.

تذكر صباهما، لقد تربيا معاً في قصر واحد، لكنها كانت دائماً كالشمس تجمع حولها الكواكب الصغيرة فيدورون سعداء في فلکها.. أما هو فقد كان ظلها دائماً!! التفتت إليه.. فغض بصره المفتون بجمالها خجلاً ولاذ بالصمت.. هذه السمراء لها جمال فتان تميزت به عن سواها من نساء بلاد كوش «السودان» ربما لأنها مصرية الأصل، ملكية الدماء، ولكنها ولدت وعاشت مع أهلها في جنوب الوادي، و أخيراً سألها بهدوء وكأنه يتوقع الإجابة:

.. هل أصابه سهمك هذه المرة..؟

قالت وهي تُحصى ما تبقى في كنانتها من سهام:

- لا.. كانت المسافة بعيدة جدًا.. لكن حارسه أصيب، إصابة بالغة، وقد جن

جنونه وأرسل كتيبة من الجيش خلفي لتطاردني..

زاد وجهه انفعالاً:

- هل أصابك مكروه.

لاح على وجهها خيال ابتسامة..

- لم يصلوا إلي.. لقد ركضت بسرعة، وفي ثواني معدودة كانت المسافة قد

اتسعت بيني وبينهم فحمدت الإله على نعمة الأدغال التي تربينا فيها.. هل

تذكرها؟

لمعت عيناه من السعادة، وابتسم مُظهرًا بريق أسنانه البيضاء.. قائلاً:

- مازلت أعيش فيها.. وأنتِ ألا تداعبك أحلامك يا «داشيتا»..؟

حولت وجهها نحو سحابات الغيوم الرصاصية التي بدأت تسلب القمر

ضوءه، كي توقف تدفق الحديث الذي بدأ ينحدر في مضيق تحذره، وجاءه صوتها

باردًا وقاطعًا كحد سيف:

- لم أعد أحلم أبدًا يا «حاروز» لم أعد أحلم.. أسرع فطريقنا مازال طويلًا.

ازدادت ضربات مجدافه قوة وقسوة، وتناثر رذاذ الماء حتى بلبل وجهه الذي

اندفعت فيه دماء الخجل مصحوبة بشيء من الغضب والضيق ثم غير مجرى الحديث

قائلاً:

- حسنًا لا تخشي شيئًا يا «داشيتا» فلن يلحقوا بنا.. وقبل الفجر سنكون قد

عبرنا إلى أبعد نقطة من الوادي حيث الأمان بعيدًا عن جنده، ونختفي بعدها بين

العمال والفلاحين.

رأس مرتفع ملك منهزم



عيناه تراقبان في يأس فلول جيشه المنهزم... لقد مرت الأحداث الأخيرة أسرع مما كان يتوقع.. لم تتمكن بلدة «بلوزيوم» (السويس) من الصمود رغم مقاومتها العنيفة للجيش الفارسي ومن بعدها سقطت مدينة «عين شمس» وهاهو الجيش الفارسي قد شق طريقه وواصل زحفه إلى أن وقعت مدينة «منفيس» وحوصرت «صاه الحجر» عاصمة مملكته.. تحطمت أسوار قلعة «منف» ، وحاميتها تلاشت.. وتفرق زبد البحر، ومن حاول الصمود قُتل وأسر..

لا شيء يوازي شعور الهزيمة، ووقعها في نفس ملك عظيم.. فرعون.. ملك الدنيا ودانت له الممالك.. كم تمنى أن ينال شرف الموت مدافعاً عن أرضه، وبذل كل ما يستطيع في ساحة النضال.. تمنى أن يغرب كما تغرب الشمس، ولا يرى بعينه، انهيار بناء الأجداد..

حتى هذا الشرف لم يرضه له «قمبيز»، ملك الفرس وإنما أراد أن يراه منحنيًا في قيود الأسر، فقد عشق رؤية الذل والانكسار في عيون العظماء.. دموع الملوك.. هذا وحده هو قمة النصر الذي يرتضيه..

لكن «أبسماثيك» الثالث الفرعون المهزوم، كان ما يزال متماسكاً رغم القيود.. يراقب سيطرة القوة الهمجية، ومحاولتها نحو التاريخ..

لاحظ على وجهه ابتسامة مريرة وتذكر كم كان من قبل يعتبر أن انفصال زوجين.. انتهاء حضارة صغيرة!! فما بال احتلال هؤلاء الفرس الغادرون لحضارة منظمة وعميقة الجذور، حضارة علمت الدنيا.

إنها الليلة العاشرة له منذ أن وقع في الأسر ومازال مقيداً بالسلاسل في هذه الساحة الفسيحة ينتظر انتقام ملك الفرس المنتصر ويتعجب لماذا يُبقيه هكذا في قيده عشرة أيام كاملة.؟!

فقد الكثير من رعيته ومحبيه حياتهم في محاولاتهم لإنقاذه.. لكنه ظل طوال تلك الفترة المنصرمة يردد دائماً في نفسه : قد ينالون رأسي لكنهم لن ينالوا من كبريائي، فما زالت عيون الأسرى و الفلاحين تراقبني، تتعلق في ذهول بقيدي، وهم مازالوا ينتظرون مني الكثير، و كأنهم لم يدركوا بعد أن الفرعون، الذي أعتادوا أن يرفعوه إلى درجة التأليه والعبادة، وجعلوه ابناً لأمون مجرد إنسان مثلهم، عند قلب الزمان وارتفاع الوضع وانخفاض الكريم، يمكن أن يُساق في قيد حديدي يشبه قيودهم!! ولكن ما أدركه أنا، وتأبى علي كرامتي أن أراجع عنه، هو أن لدي كبرياء لا يتزلزل ولا ينكسر،.. و في انكساري تمام الانكسار لهم.

تبسم ساخراً وهو يتلفت حوله ويرى جموع من كانوا بالأمس من السادة و القادة والكبراء هم أيضاً في قيودهم قريباً منه!! فقال بصوتٍ أقرب للهمس:

- بالسخرية القدر مازال مجلسي مكتملاً رغم الهزيمة.. إن قمبيز قد جمعنا في هذا المكان لأمر أراده.

«توزوي» قائد جيشه، وصديقه القديم، ورفيق صباه لاحظ شروده وملله من انتظار المجهول!! خاف أن يفت طول الأمد وشعور الأسر من عزيمته، وهو الفرعون الذي تتعلق به عيون من بقي من جيشه المنهزم، ومن يتطلعون إليه من أهل المدينة، حاول بصعوبة أن يقترب منه مجرداً أغلاله التي كانت أكثر بكثير من



سيدي إلى متى الانتظار، و النهاية معروفة فلماذا يغلفون شرف الموت في قيد الذل..؟

خنفه دخان النيران المشتعلة في المزارع، هذه النيران الحمقاء التي يعبدها هؤلاء المجانين.

هز الفرعون رأسه قائلاً:

- ما أقسى الهزيمة يا «توزوي»!

- وهل هُزنا حقاً يا سيدي..؟ إنها خيانة «فانيس» الأغرريقي قائد المرتزقة، وبدو الصحراء لنا.. وهذا اللعين الذي يدعى «وزاحر راسن» قائد أسطولنا البحري الذي باعنا للفرس، بعد أن أغروه ببريق الذهب.

- النتيجة واحدة رغم كل شيء، انظر يا «توزوي»، الجثث تملأ أرض المعركة.. مصر كلها.. لا فرق بين جندي و فلاح، بين سادة وعبيد..
- مولاي لقد كان الكل معك.. يجاربون بقلوبهم.

نظر «أبسماتيك» إلى الأفق قائلاً:

- ستة أشهر مرت منذ توليت الحكم، نشرت فيها ما أمكنتني من عدل، وجهزت ما استطعت من الجند لعلّي أستطيع أن أمنع خطر الفرس القادم..
تنهد «توزوي»:

- ما حدث في مصر خطأ عسكري فادح يا سيدي، وكم نبهت إليه الفرعون الراحل «أحمس أماسيس» لكنه لم يستمع لي.
أحنى «أبسماتيك» رأسه في حسرة:
- لم يكن أبي يستمع لأحد يا «توزوي».

- نعم يا مولاي، كان يميل إلى الأجنبي، رغم ما يعلمه من أن الشعب ما نقم على من قبله إلا لأنه كان يؤثر اليونانيين بحظوة أثارت عليه المصريين جميعاً فقد أطال زمن السلم، وفتح باب الجندية للإغريق اليونانيين والزنوج، واندس العبيد

في الجيش فكثر فيه المرتزقة، و قل فيه عدد المصريين، ومن تبقى منهم أبعده عن ساحات التدريب.

- نعم فقد تركهم يختالون في النعيم ويتباهون بملابسهم العسكرية الأنيقة كالطواويس بين بسطاء الفلاحين و جعل الأجانب يعيشون في ترف ويتحكمون في المصريين ويمتصون دماءهم، وانشغل هو في معارك مع كهنته، بينما الفرس يبنون قوتهم ويزحفون من الشرق إلى الغرب كمارد جبار يبتلع الشعوب حتى غدو يسيطرون على نصف العالم....

- بالفعل لقد أدركنا في المعركة أنهم صاروا جنود قصور، لا جنود قلاع وثور.

تنهد «توزوي» بحسرة:

- كان بإمكاننا الصمود أكثر ومنعهم من دخول مصر لكنها الخيانة يا مولاي، جعلت من البرابرة ملوكًا وفتحت لهم أبواب صحرائنا، و منافذ بحارنا، فجاءونا برًا وبحرًا.

نظر «أبسماتيك» بحزن إلى القيد الذي في يديه، وشعر بغصة في حلقه، فما زال يشعر بطعم المصاب الفادح مُرًا في مذاقه ثم قال وهو يُبعد وجهه عن توزوي، وكأنها يتقي نظرت عينيه.

- لا مجال للندم، لم يكن باستطاعتنا أن نفعل أكثر من ذلك.

ففلول الفُرس الجرارة كانت كالسيل العارم.. أعدادًا لا حصر لها خاضت حروبًا وفتحت عوالم.. تحركها نيران الانتقام الكامنة في قلب «قمبيز»..

ساد الصمت لحظات فعلى البعد ظهرت سحابة من الغبار، أخذت تقترب.. حتى لاحت معالم الركب.. كان مشهدًا مهيبًا، إنها «نيتيس» المصرية جاءت منتصبة القامة واقفة على الكرسي الخلفي لعجلة حربية كبيرة تجرها ثمانية خيول من

سلالات أصيلة مشدودة إلى العربة تهز رءوسها المزينة بريش أحمر وقد بدت جدران العربة الملونة باللونين الأحمر والأخضر، والمنقوش على جانبيها ذلك الأسد المذهب..

رفعت رأسها في خيلاء الفراعين كأنها تمثال من المرمر، وقد وضعت على رأسها تاجًا فارسيًا كاد يخنفي ما به من ذهب من كثرة اللآليء النادرة التي تغطيه، وقد جمعت في لباسها بين الزي الفارسي الذي تعبّر عنه العباءة الملونة المزينة بالرسوم الإغريقية الذهبية، والملابس الكتانية المصرية الرقيقة المزينة بالحرير، والوشاح المرصع بالمرمر والياقوت.. تتحرك خلفها كتيبة من الفرس ضخام الأجسام حرصت على أناقة مظهرهم، ولمعان أسلحتهم، وعلى المقعد الأمامي جلس أحد الفرسان ممسكًا بلجام الخيول وهو يقود عربتها بسوطه.

عبرت بين ألوف الأسرى الطامعين في رحمتها، وقد احمرّ وجهها الأبيض النقي، ورفعت أرنبه أنفها الطويل الدقيق في شموخ وكأنها لا ترى قومها!!

حتى توقفت أمام ملكهم المكبل «أبسمايك الثالث» الذي أثار الخيول الغبار حوله هو و من معه من القادة.. لم تكن ترى غيره، نظرت إليه باستنكار:

- ما أروع قيدك يا ابن «أماسيس» المغتصب.. كم يحلو لي أن أراك هكذا أيها الفرعون الهش.

ثم ازداد صوتها حدة وحنقًا:

- كم تمنيت لو كان «أماسيس» - لا رحمته الآلهة - مكانك.

نفض «أبسمايك» بعضًا من غبار الخيل عن وجهه ورمقها بنظرة لا تخلو من سخرية وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة وقال بهدوء شديد:

- تريشي.. «نيتيس» و لا تثيري غبار حقدك، فإن هؤلاء الأسرى أهلك و أبناء

وطنك، ومنهم من تجري دماؤهم في عروقك.. إنهم مصريون مثلك

- عن أي دماء تتحدث.. أنسيت أن دماءنا نُزفت بقتل أبيك اللعين لأبي
واغتصابه لملك الفراعين العظام، آلهة المصريين و أبناء آمون..
ازدادت نظراتها غضبًا، وازداد صوتها ارتفاعًا وأكملت تقول:..
- كيف يُقتل الفرعون الإله ويحكم السوقة و الرعاع.. أيجمك العبد ربه..!!
ويقتله ذبحًا، أيذبح من كانت تسجد له جباهكم طوعًا وكرهًا؟
رفع «أبسما تيك» وجهه وثبت عينيه في عينيها و تحكم في صوته فخرج هادئًا:
- إن كان حقًا والدك الفرعون «إبريز» إلهًا فكيف لم يحم نفسه.. كلنا بشر يا
«نيتيس» نفنى و تتقلب بنا الحياة، فنرى نعيمها، و جحيمها.
- هه.. من أين أتتك الحكمة يا ابن الغادر؟
- من هذا القيد ياملكة الفرس.. فمن يرتد الأساور الحديدية، يُدرك ما لا
يدركه راكب العربة الحربية.
اشتعلت غضبًا وصرخت في وجهه:
- لا تحاول أن توهمني بعكس ما تشعر به.. ليس بإمكانك أن تخدعني، فما أنت
إلا خائف مهزوم.
- مهزوم... نعم أيتها المنتصرة على قومك، السافكة لدماء أهلك.. أما الخوف
فلم أقترف بعد ذنبًا أخافه.. أما أنت فاحذري نفسك، فليس أشد منها خطرًا عليك
ولا على الناس.



القائد «توزوي» والأميرة «نيتيس»



أشاحت «نيتيس» الغاضبة بوجهها لتنصرف، ولو أن الأمر بيدها لتركت لغضبها العنان، وأمرت بفصل رأس «أبسما تيك الثالث» عن عنقه، لكنها تنتظر ما وعد ابنها «قمبيز» ملك الفرس بأن يذل الفرعون وأسرته..

توقفت للحظة، عند التقاء عينيها بعيني القائد «توزوي» الذي كان واقفًا يتابع ما يحدث في ذهول، وكأنها أصابه الشلل، حينما سمع حديثها الخالي من الرحمة، فأحس بلهب من النار يسري في عروقه، وعندها ألقى به واقعه من زمن إلى زمن وهو يرى ما لم يكن يحلم به من تغير لتلك الأميرة المذهلة الجمال التي أحبها يومًا، وهام قلبه بقلبها عشقًا، وانتزعها القدر من بين يديه وألقاها في أحضان ملك فارس.. ففضى زهرة شبابه حزينًا على فراقها، ورفض أن يتزوج، وزج بنفسه في سلك الجندية، حتى جاء اليوم الذي أصبح قائدًا لجيش مصر، وهاهو الآن قد صار أسيرًا لديها.. فما أعجب قلب الزمان! وما أغرب تغير الإنسان! كيف تُكسب الأحداث قلبًا حنونًا وعينين شفافتين كل هذا الطغيان والجبروت، ويتحول الصوت الخافت الخجول إلى صراخ قوي مدمر.. لم يعد بإمكانه أن يدرك ماذا عليه أن يفعل.. هل يرثي لها أم يرثي لشعب كامل أهلكه انتقامها، فلم يتعرض إنسان لما تعرضت له من قسوة وظلم، ولم يظلم إنسان شعبًا كما ظلمت شعبها.

لم تستطع «نيتيس» أن تمنع رجفة سرت في جسدها، وارتعدت شفتاها صارت دقات قلبها أعلى من طرقات الطبول وهي تنظر إليه.. إلى مصير من أحبت.. تصارع الماضي كله بداخلها في ثوانٍ قليلة.. إنه لم يتغير كثيرًا رغم مرور ربع قرن من الزمان، فهاهو ضخم فتىً كما هو..!! واثق النظرات لامع العينين، مفتول العضلات.. حتى الشعرات البيض التي جاء بها الزمان انتظمت على جانبي رأسه فزادته وقارًا وحكمة.. شعرت بالمرارة في حلقها.. هل تحرق نيران حقدتها وثورة غضبها حبيبها أيضًا، هل تفقده مرة أخرى كما فقدته من قبل..؟، وكيف تُقنع ابنها ملك الفرس أن يعفو عن القائد الذي أهلك جنده..؟ وماذا سيظن بها..؟

دارت بها الدنيا في لحظات نسيت فيها انتصارها، وشعرت بانهارها وضعفها.. لماذا يُخرج لها الزمان من جُبهه دائمًا ما يطْفئ بهجة انتصارها؟ نهرت سائق عربتها ف ضرب الخيول بسياطه، أسرعت مبتعدة عن عالم الأسرى وخلفها حرسها، متجهة نحو القصر.. كمن يهرب من ماضيٍ سحيق، غير شاعرة وغير حافلة بقطرات الدموع التي كانت تتسابق على وجنتيها.



أن يحمي مصر، لكنه عند تولي الفرعون «أبسماتيك الثالث» الحكم علم أن ما كان يحظى به من قوة وسطوة وحكم في عهد أبيه لن يستمر طويلاً فهذا الفرعون ليس كأبيه، إنه يحاول إعادة بناء الجيش المصري من جديد، وتقليل حجم الأجنبي به، فبادره بالخيانة وباعه للفرس، بعد أن تفاوض مع رُسل قمبيز، ووشى بخطط الجيش.. كان لخيانته أكبر الأثر في وصول جيش فارس إلى هذا النصر..

وبجانبه كان يقف الخائن الأكبر «وزحاررسن» الطبيب الماهر والقائد العسكري المصري الفذ الذي نجح في أن يصبح قائداً لأسطول مصر، لكنه أمام إغراء الذهب باع وطنه وفتح الطريق للأسطول الفارسي، فصار الغدر يطوق مصر براً وبحراً..

اقترب الوزير الأعظم «ميجا» من «قمبيز» على أثر إشارة من عينيه.. بدت على وجهه ابتسامته الباردة المعتادة.. حدثه هامساً:

- أوامر مولاي المعظم.

أشار له «قمبيز» نحوهما بعينه:

- لماذا مازالا بيننا.

تبسم «ميجا» في مكر..

- إنه المكان الوحيد الآمن لهما الآن في تلك البلاد.. ولكن هل من مصير آخر

حدده مولاي لهما.

- حسناً مازال هناك عمل عندي لـ «وزحاررسن» فمهمته لم تنتهي بعد..

أرسله على الفور مع كتيبة من جنودنا، ليدهم على أماكن اختباء الكهنة، ولا يتركهم حتى يدلونه على الأماكن التي يخفون بها القرايين والكنوز..

وفي الحال كان «وزحاررسن»، يتعد ومعه الكتيبة رغم ضيقه بالمهمة، و شعوره

بالخزي الذي سيلحقه بعد مواجهته للكهنة في معابدهم.

وبعد أن اختفى اقترب الوزير «ميجا» من «قمبيز» وهو يحرك سيفه متشياً قائلاً:

- «وفانيس» أليس له من مهمة أخيرة..؟

- دعه يتقدم..

و بإشارة من يد الوزير تقدم «فانيس»، وهو رغم معرفته بقيمة ما قام به من خدمات لملك الفرس، إلا أنه مازال يرتجف كلما تقدم منه، ويزاوله شعور بعدم الأمان كلما نظر في وجهه، الذي يعرف فيه كرهه، و احتقاره له.. لكنه تعجب وهو يرى الآن شبح ابتسامة لاحت على وجهه، وبرغم أنها ابتسامة ساخرة إلا أنها على الأقل ابتسامة.

التفت «قمبيز» إلى خازن المال، والمسئول عن صناديق الذهب المأخوذة من المعابد، والمحملة على قوافل من الحمير الواقفة في مؤخرة الجيش قائلاً:

- لقد كان «فانيس» خير معين لنا على فتح هذه البلاد، وقد جاء موعد مكافأته، غطوه بالذهب.. فإنه يستحق.

كاد قلب «فانيس» يرفرف محلّقاً في الهواء من السعادة، أسرع يمد يده لقمبيز مسلماً وهو يقول:

- مولاي الملك المعظم دعني أتشرف بأن أضع يدي في يدك لأقبلها، إجلالاً لعظيم ما أكرمتني، وأعاهدك أنا ومن تحت يدي من جند المرتزقة أن نظل خدمًا لك، وعودنا على عدوك.

لم يمد «قمبيز» يده، وإنما أشار له بالبقاء في مكانه قائلاً:

- أثبت مكانك، فمثلك لا عهد له، وحذار أن تقترب، إنحنٍ واحمل هذا المعدن البراق الحقير ثمن بيعك للوطن الذي ولدت فيه وآواك، وأكرمك، ورفعك إلى

أعلى المناصب، رعم أنك لست من أبناءه.. أما يدي فلا أضعها في يد خائن.. أبداً.
انحنى «فانيس» يجمع الذهب وهو يرتجف، وصدرة يغلي بدماء الحقد،
والكراهية، وقد أضمّر كل شر في نفسه.. وبعد أن وضع حملته على ظهر عربته
الحربية، شيعه «قممبمز» بنظرة احتقار حارقة، بينما اقترب الوزير «مبجا» من سيده
قائلاً:

- مولاي لقد أوغرت صدره، وهو رجل مكائد ليس بهين، وله كلمة، وجيش
من المرتزقة، ولدوا جميعاً وسط الحروب!!
همس «قممبمز» متهكماً:

- جنده يبيعونه بأقل مما أخذوا «مبجا»، أما هو فاحرص على أن يقضي ليلته في
غرفة أنيقة مع أسد جائع، فأنا لأحتفظ بخائن تحت سماء أرض أملكها، وكن حذراً
فلا أريد أن يعلم «وزحاررسن» من أمره شيئاً، فما زال موعد لحاقه بصاحبه بعيداً،
فقبل أن يكون مجرد خائن حقير فإن لديه علم غزير، وخبرة أحتاج إليها الآن، أكثر
مما يحتاج الأسد إلى لحمه التن.



المعلم



توقف عن الحديث فجأة وأشار لمن حوله بالرجوع إلى الخلف
وهو يلمح بعضًا من جنده يحملون هودجًا يعرف مكانة صاحبه..!!
ترجل «قمبيز» من فوق فرسه فما كان له أن يظل في شموخه
وهو في حضرة معلمه وطبيب أبيه (كنترياس).
فتبسم المعلم وهو يستند على عصاه ليتمكن من النزول من
هودجه قائلاً:

- حتى في يوم نصرك تنزل من مجدك لاستقبالي.

- مجد العلم، خير من مجد الملك.

- قمبيز، أنت حقًا يا ولدي تستحق أن تكون ابن «قورش»
الموحد والفتاح العظيم الذي صنع أعظم حضارة للفرس، وها
أنت تكمل مسيرته وتضم على حداثة سنك إلى ممالك سيدة
الممالك.. مصر.

شعر «قمبيز» بلذة النصر تسري في عروقه أما المعلم فقد كان
يعرف معنى البريق الذي اتقدت به عيناه فأكمل قائلاً:

- منذ صباك يا بني وأنا أدرك أن أحلامك تعلو وتشق
السماء، فلم تكن يومًا من هؤلاء الذين يمر عليهم الزمان
ويشيخون وهم ملتصقون بأخواهم الدافئة، بل من النوع الذي
يمتلك الإرادة الكافية لتحقيق ما يحلم به.

- نعم يا معلمي، ولكنها إرادة أحسنت أنت تدريبيها، إنها إرادة الملوك في توحيد العالم وتجميع الشعوب تحت قيادة واحدة وراية واحدة، فالحياة تسمو وتنبت على بريق الدماء الحمراء التي تسقي السيوف الجائعة، والمجد يعشق الصدور الشاخمة، ويسحق الظهور المحنية.

تبسم المعلم قائلاً:

- أي بني أنت الآن فتحت مصر، وأضفت إلى مُلكك زهرة البلاد.. فمصر ليست كأبي بلدٍ تُفتح.. إنها حضارة وعلم وتاريخ ضرب جذوره في أعماق الزمان.

اقرب قمبيز وهو يدرك تمام الإدراك خطواته القادمة وقال:

- أعلم جيداً أي بلد دانت لي الآن، وما جئت مصر لأهدم حجراً فيها، وما تراه الآن هو ضريبة الفتح تدفعها الشعوب التي تُصر على المقاومة.

- من حق هذا الشعب أن تشفق عليه وتحترمه أيضاً فقد أدى ما عليه من واجب في المقاومة؛ لأن من لا يقاوم غازياً لا يستحق الحياة بكرامة.

- قد يكون في الإشفاق إهانة للكرامة، ولعل في حبس المعونة أحياناً من النبيل ما ليس في المسارعة إلى بذلها.. هذا ما علمته لي يوماً.

احمر وجه المعلم حتى منابت شعره الأبيض، ولاذ بالصمت، وهو يراقب هذا الصرح الذي نجح في بنائه، وعلمه أسرار الحكم، وسُبل السيادة بعد أن ساس أخلاقه.. هذا الفتى الضخم عريض الجبهة، برونزي البشرة، وسيم الوجه، الذي تحيط به لحية سوداء كثة، وتتجلى على ملامحه أسرار القوة والعظمة، والكبرياء المتميز ببريق عينيه السوداوين، التي تندلع منها نظرات كأنها لهب، والذي لم يبلغ العقد الثالث من عمره بعد لكنه يحمل عقلاً يؤهله لأن يكون من أعظم ملوك الأرض..

فتحرك قمبيز كمن يستعرض ما وصل إليه من قوة وسيطرة ورفع يديه متفاخراً



أي بني أنت الآن فتحت مصر، وأضفت إلى مُلكك زهرة البلاد.. فمصر ليست كأي بلد تُفتح..
إنها حضارة وعلم وتاريخ ضرب جذوره في أعماق الزمان.

لاحظ قمبيز شروء معلمه فاقرب منه قائلاً:

- مازال هناك مكان للانتقام فابنه الملك «أبسماتيك» الثالث، قد وقع في قبضتي، وسأختبر صبره على الذل قبل أن أقضي عليه.

تنهد المعلم وهو يُداعب لحيته ويستعد لاعتلاء هودجه عائداً،.. ونظر في عيني قمبيز بقوة وقال:

- تذكر أن فتحك لبلاد النيل ليس دافعه الوحيد هو الانتقام، فالانتقام وسيلة وليست غاية، ولكن الهدف الأسمى هو إمبراطوريتك العظمى التي خلقت لتنمو وتسود، أما «فرعونهم ومن معه من خيرة هذا الشعب و ممن كانوا سادته فقد صمدوا ولم يتنازلوا أو يخونوا، فلا أحق من أن تعاملهم بكرامة..!! لا بذل وإهانة.. سواء عفوت عنهم أو ألحقتهم بمن فقدوا، وتذكر جيداً أن أباك «قورش» الكبير كان إذا فتح بلدًا، يعفو ويكرم،.. ويولي أيضًا.. فكُن لذلك أقرب.

شعر «قمبيز» أنه مازالت أمامه جبال من علو الهمة يجب أن يرتقيها قبل أن يُصبح شبيهاً بأبيه.. ولو كان أمراً غير هذا لأخذ بدربه وعفا..!! لكنه لا يقدر أن يتراجع الآن وصوت أمه المطالب بالانتقام مازال يطالبه بالتراجع..

المعلم يعرف ذلك لذا قطع فترة الصمت قائلاً:

- إذا احرص على أن يكون الماضي منصة للوثب ونيل ما تهوى بدلاً من أن يكون أرجوحة تتلاعب بك.
- ماذا تقصد.

- ذكّر الشعب المصري بأنه ميراثك الشرعي وارثي الفراعين، وابن ما تهدم من مساكن ومعابد وتقرب إلى آلهتهم التي لا تؤمن بها، فأنا أعلم أن «قورش» قد أخبرك كثيراً أنه ليست نيراننا، ولا آلهتنا الفارسية ولا المصرية، ولا حتى اليونانية هي التي تتحكم في مصائر العالم وإنما تحكمه قوة واحدة لا تتجزأ، هي التي توجه

بصائر الأمم والمخلوقات، قوة خالق واحد يتصرف في أقدارنا كيف يشاء..
- ما دعا إليه أحرقتة نيران قومنا بعده.

- ربما يأتي يوم تتذكر فيه مقاله ، وتعيد ما تهدم من بنائه، أنت بحاجة الآن إلى
فترة من التقرب لهذا الشعب، والتفاهم معه، وتذكر أنه كم من أسيرٍ تقلبت
وحكمت هذا البلد فلتكمل مسيرتهم ولا تهمل مسيرتك.



البلاد، ونجني ثمار الفتح، ويعم الأمن قبل أن نتقل لفتح جديد.

في مكمنها كانت «داشيتا» مازالت متربصة، وقد غمست نصال سهامها في سُم الأفاعي،.. ووقفت تنتظر اللحظة الحاسمة.

«حاروز» لا يستطيع إلا أن يكون قريباً منها.. رغم رجائها له بالابتعاد.. هذه المرة الفرار لن يكون سهلاً.. فأضواء المشاعل و القناديل تجعل الليل نهاراً..

أمسكت القوس بقوة، وشدت الوتر بعدما ثبتت السهم.. رفر قلب «حاروز» وزادت نبضاته فصارت كطرقات الطبول فرغم دقتها في التصويب، وقوة رميها، إلا أن المسافة بعيدة جداً و الجنود في كل مكان والخطر محقق.. أسرع يزحف نحوها لكي لا يلحظه أحد، وعلى الفور زجرته بنظرة غاضبة، لكنه لم يكن يأبه ساعتها بعصيانها فقال مسرعاً:

- ليس الآن يا «داشيتا» اصبري فلن يصله سهمك من تلك المسافة سيتحول إلى سهم طائش يأخذ معه حياتك، فلنؤجل صيدنا إلى أن تحين فرصة أقل خطراً.

قالت دون أن يرف لها طرف أو تتبدل نبرة صوتها:

- ليس هناك فرصة أهم من تلك، يجب أن أصيبه قبل أن يُنهي حياة الفرعون، إنها اللحظة الحاسمة..

- فلنترث قليلاً، فمن الحكمة أن ننتظر فرصة أقل خطراً..، أنا من دربتك يا «داشيتا» وأعلم أن نجاح إصابة قمبيز من هنا ضرب من المستحيل..

- لست بحاجة إلى إصابة بالغة، يكفي أن يجرحه السهم ليقتله مابه من سم الكبرى الفتاك.

- انتظري رجاءً.. لو طاش السهم فقد تذهب روحك أنتِ بلا ثمن.

- كل الذين أحببتهم راحوا مثل الحلم.. راحوا بلا ثمن.

- مازال لدينا الوقت .. أخشى على حياتك.

- لا تقلق عليّ يا «حاروز» فقد أدركت أخيراً أن الحياة مجرد حلم..

شدت قوسها بكل ما أوتيت من قوة وهي تطلق كلمتها الأخيرة:

- والحلم يا رفيقي ليس أكثر من حلم.

عيونها متعلقة بالسهم المسموم المندفع بلا رحمة يحمل سُمه نحو «قمبيز» الجالس في هدوء ينتظر تنفيذ أوامره.

وفي اللحظة الحاسمة انحنى «قمبيز» يساراً ليلتقط كأس شرابه فمزق السهم حاشية كرسيه، وارتجت الساحة بالصيحات والتجهت كل العيون نحو مصدر السهم وشرعت الأيادي الرماح، والسيوف، وقفز الفرسان على الخيول..

رأى «حاروز» الرعب والحيرى في عيون «داشيتا» فالمسافة الفاصلة هذه المرة لا تكفي للفرار وها هو الموت قد أصبح محققاً، وفي لحظات كان قد خطف قوسها وكنانة سهامها، ودفعها بقوة من خلف الشجرة التي كانت تخبئها فسقطت في ماء النهر المظلم فلم ترها عيونهم، وأسرع في شجاعة نادرة نحو جيش «قمبيز» وهو يطلق سهامه القاتلة، التي لا تخفي هدفها، ولما نفذت مزقهم سيفه.. لم يفكر لحظة واحدة في ما هو مقدم عليه من خطر، ولم ينظر إلى عددهم، كان يضرب، ويضرب، كأنه الريح المرسله، وكل أمله أن يعطيها الوقت للهروب.

أخيراً طوقه الجند..

في لحظات وقبل أن تُصيبه رماحهم بضربات قاتله جاءتهم الأوامر من قمبيز بأنه يريد حياً!!..

مر الوقت سريعاً و«داشيتا» مازالت تسبح وتختفي عن أعين الجند وسهامهم المرعبة التي اندفعت نحو الماء كالشلال، ومشاعلهم التي بددت كل ظلام، ظلت تحاول الاختباء بين الأعشاب وخلف نباتات البردي، حتى وصلت إلى الضفة

نعم حتى «حاروز» قد فقدته.. فقدت من بقي أماناً لها في هذه الدنيا.. لم تكن تشعر بقدره من قبل كما تشعر به الآن.

لم تستطع الابتعاد من الماء حتى تأكدت أنه لم يُقتل، لماذا أصر «قمبيز» أن يمنحه ذل الأسر؟

أخذت تحدث نفسها في جنون:

- لماذا ضحى بنفسه من أجلي..؟ إنه أسرع مني وأقوى أيضاً.. ولديه فرصة كبيرة للهروب؟ لكنه فعل كل ما يمكن لبشر أن يفعله لكي يعطيني الفرصة للنجاة.. «يا لهذه الأيام العصيبة..! لقد أصبحت تفقد كل من تحب و ما تحب .. ذهبت الأيام الجميلة، واغتيلت الأحلام.. كل شيء أصبح خيالات وماضياً.. لم تعد تمتلك إلا ذاكرتها» تنهدت في يأس:

- ذاكرتي هي الفردوس الذي لا يستطيع أحد أن يطردني منه .

وهي أيضاً الجحيم الذي أعجز عن الهرب منه.

لا تستطيع حتى الفرار أو محاولة النسيان فلا شيء يُرسخ الأشياء في الذاكرة ويثبتها مثل الرغبة في نسيانها..

لا لن تهزمها مشاعرها، فكل شيء إلى فناء وهماهي تتجرع الفراق قطرة قطرة حتى كادت أن تألفه، كل شيء متربص بها.. لكنها قررت ألا تتراجع..



obeyikan.com

دموع الملوك



دوى صوته الساخر في القاعة وهو يقلب «حاروز».. بنظراته ذلك الفتى الأسمر الفتاك، ذو العضلات البارزة المكتنزة،.. حقًا إنه مقاتل بارع يساوي عشرة رجال، لكنه رغم كل ما أصابه من عقاب مازال مصرًا على الصمت.. هتف قائلاً:

- حسنًا عما قريب سأعرف من أنت؟ ستأتي إلي راعيًا لتخبرني بكل شيء.

فمثلك لا يُستهان به، فقد كنت تقاقل قتال من يرمي نفسه في الموت ليحمي غيره، لقد اندفعت في جنون نحو الجند.. لا نحو سيدهم، بعد أن طاش سهمك.. أو سهم من كنت تحميه.. لكنني لن أمنحك راحة الموت حتى أعرف من وراءك.. خذوه.

أخذ الجنود «حاروز» إلى سجن قلعة منف، وتركوا «قمبيز» ينتظر أن يخبره رجاله برد فعل الفرعون، ومدى صموده لما أعده له من ذل، فقد أعد كل شيء، ولا بد من انتظار النتائج..

تنهد قمبيز في صمت ساخرًا من نفسه:

- وهل بقي للملوك من فضيلة سوى فضيلة الصبر و الانتظار.



مر موكب السقاة هكذا كانت بنات الأمراء والسادة وهن يرتدين ملابس الإماء والجواري ويحملن جرار الماء لسقاية جنود قمبيز أمام أعين آبائهن الأسرى وهن يبكين.. ويكي أبأؤهن لرؤيتهن، والعيون تراقب الفرعون.

نظر «أبسمايك الثالث» إلى ابنته بينهن.. وصل الجرح سريعاً إلى أعماقه أصبح كالوشم الذي لا تمحوه الأيام.. تحجرت عيناه المثبتتان على زهرة قلبه، على من كانت في خدرها وتاجها متوردة، تروح وتغدو بين قصوره في أثوابها الحريرية.. تهبوا إلى قِطافها قلوب المحبين.. دموعها المنحدرة في صمت كاللآليء تكوي قلبه قبل أن تصل إلى خديها.. لم تولول كغيرها، ولم تبكٍ لذلها لكنها بكت حيناً إليه حين رآته..، وشفقة عليه من أثر القيود في يديه.

تمالك نفسه ولم يسمح لدموعه بهزيمته.. ونظر إلى الأرض ليختم بصمته المشهد الرهيب..

مر الموكب الحزين.. وتبعه إعلان من سيُنفذ فيهم حكم الإعدام، فبرقت عيناه، ورفع وجهه في دعر وهو يرى أمامه ألفين من الأسرى على رأسهم ابنه.. يُسحبون لتنفيذ حكم الإعدام فيهم.. مروا بالقرب منه في تناقل، والعيون تترصده.. لعل الفرعون ينهار وهو يرى وحيداً الذي ينبض بالشباب والجمال والقوة يرى من كان يأمل أن يخلفه على تلك البلاد يُقاد للموت.. لكنه أدرك الآن أن قمبيز يُريد إكمال ذله.. وسمع همس قائده «توزي» الذي كان يحاول تحمل الألم مثله، وهو يرى إخوته وأبناء عمومته بينهم ويقول:

- مرحى للموت، الشريف أنظر كم هم رجال أقوياء رؤوسهم شائخة لا يهابون ما هم قادمون عليه، إنهم زهرة شباب مصر ورموز كبرياتها.. ليتنا معهم ننال موت الرجال مثلهم فنستريح من أعباء ما هو قادم.

فأحنى «أبسمايك» وجهه ولاذ بالصمت.

لكنه بعد مرور الموكب نظر فرأى الجنود المتمتعين بخيرات البلاد.. هاله أن يرى من الضعفاء من يتسولون من الجند.. حاول أن يتماسك، لكن تماسكه انهار فجأة حين رأى صديقه الشيخ الطيب «حور مرتف» و الذي كان من أنعم الناس و أغناهم وأعطفهم على الفقراء.. رآه وهو جريح جائع يجر قدميه ويتسول لقمة يأكلها من جنود الفرس، و لا يجد سوى السب و الإهانة.. ويصرخ ويبكي مشيرًا إليه، ومذكرًا له بأيام العزة، ومناديًا من كانوا أصدقاءه...

انهار «أبسمايك الثالث»، ونزفت دموع الملوك!!

وصل كل شيء إلى قمبيز فزاد عجبه، وعلى الفور أمر بإحضاره إليه..

مضى «الفرعون» يجر قيوده وخلفه الحرس في ذلك الطريق المرصوف بالصخور الجيرية و الذي يمتد لمساحات شاسعة صاعدًا إلى قصره الأبيض الشامخ، وعيناه تدوران في أرجاء حديقته المترامية الأطراف المشبعة برائحة البنفسج والياسمين التي تحيطها الأسوار.. طريق كان يملكه و لظالمًا سار فيه و حديقة قضى طفولته في أرجائها.. رمق بسخرية عند اقترابه من القصر تمثالين مهيبين له يمثلانه بأنفه الشامخ وهو يُمسك العصا الذهبية المعقوفة ويرتدي تاجه الفرعوني وضعوا التمثالين حديثًا بعد أن تولى الحكم بثلاثة شهور، وأمامها كانت ترتفع مسلتان منقوش عليهما إنجازات أسرته الأسرة السادسة والعشرين... ظهرت الجدران الملونة والمداخل الواسعة.. وقد ارتدى الحرس زيًا فارسيًا أنيقًا ووقفت الجوارى مصطفات بجانب الأعمدة وقد وضعن البخور على الفحم المتوهج في المباخر البرونزية.. فتصاعدت الرائحة الذكية إلى أنفه شعر بالانتشاء رغم كل شيء.. لحظات ويُصبح أمام عرشه.. الذي سكتته غربان فارس..

وعند العرش توقف به حارسه..

أعطاه قمبيز ظهره وادعى انشغاله، بقراءة برديات وجدها حوله، وهو جالس

على الكرسي المهيب الذي تشكل قوائمه على هيئة أقدام أسد ويرتفع مسنده المزدان بنقوش ذهبية مُطعمة بأندر الجواهر، مُستندًا على الوسائد ذات الورد الزرقاء الزاهية وحوله أربعة رجال أشداء يلوحون عليه بالمرآح الضخمة المصنوعة من الريش، وعن يمينه مجموعة من القادة المُحمّلين بأثقل الأوسمة الذهبية وأفرها، تلمع أسلحتهم التي ارتوت من دماء المصريين..

ببرود أشار ملك الفرس إلى حاجبه.. اقترب الحاجب ووقف يسأل الفرعون الأسير:

- إن سيدك «قمبيز» يسأل لماذا عندما رأيت ابنتك قد دُلت و ابنك أرسل إلى الإعدام لم تبك أو تتوجع، ولكنك كنت مهمومًا وانهمرت في البكاء من أجل شحاذ ليس قريبًا لك..؟

رفع «أبسمايك الثالث» رأسه موجهًا حديثه إلى «قمبيز» الذي كان يدعي الانشغال وقال بصوت قوي:

- يابن «قورش» إن مصائب أسرتي أكبر من أن أعبر عنها بالبكاء والعيويل، فما أقسى أن تلتقي عيونك بعيني ابنتك وتجدها تبكي لأجلك، وأن يُعدم من كان ولي عهدك.. ولكنها ثمرات الهزيمة يقطفها المنتصر من قلب المهزوم.
دفن أبسمايك وجهه بين كفيه في محاولة للتماسك وهو يقول:

- ولكن أحزان صديقي كانت جديرة بدموعي، فهو الذي قد هوى من قمة الثراء والسعادة والنعيم وأصبح يتكفف الناس ولا يجد اللقمة وهو على شفا الهرم.. ألا تمتليء عيناى رحمة بعزير أصابه الذل.

لم يتمالك قمبيز نفسه وأوغرورقت عيناه بالدموع تأثرًا، بذل جهدًا خارقًا كي لا يجهد بالبكاء.. أحنى رأسه وقد أدرك نُبل هذا الرجل الذي أمامه، واختلافه عن أبيه «أماسيس» الغادر.. وتذكر ساعتها كلمات معلمه «كترياس» عن أبيه «قورش»

- (كان أبوك يعفو، و يُكرم،...)..

تماسك ثم رفع رأسه محدثًا الفرعون الأسير:

- لا تجزع بعد اليوم حين تجدني محتلاً بيتك متربعاً على عرشك كأثقل صخرة في الكون.. ولكن يكفيك أن تتذكر أنني عفوت يوماً عنك وعن كل أسراي وسأعفو عن ابتك وأردها إليك.

ررفت أطياف الفرحة على قلب «أبسمايك» الذي لم يكن ليُصدق ما حدث لولا أنه عاشه بنفسه..

وتذكر «قمبيز» بقية كلام معلمه « (ويولي أيضاً.. فُكُن لذلك أقرب) فتبسم له قائلاً:

- سأبقيك في أحد القصور الملكية، وقد أحتاج إلى مشورتك يوماً.

وهنا نظر «أبسمايك الثالث» في رجاء، وقد تملكته لحظة ضعف أبوية، بينما امتلأت نفسه إعجاباً بشهامة من هزمه وهتف طامعاً..

- وابني.. رجاءاً أيها الملك إنهم يعدمونه الآن.

وعلى الفور أصدر قمبيز أمره لحرسه أن يوقفوا عملية الإعدام، ولكن كان قد سبق السيف العذل.



obeyikan.com

«توزوي»



إنه العفو الذي ناله «أبسهايك الثالث» وأسرته، ومعهم الكثير من حاشيته وقادة جيشه، وشمل أيضًا «توزوي» الشجاع قائد الجيش المصري.. عفو ملك لم يستطع أن يُخفي عظيم تأثيره ببُبل من هزمه..

جراحه أعمق من أن تندمل بسهولة، لم تكن تلك هي جراح المعركة، إنها جراح جديدة أكثر عمقًا، ليس في جسده فقط، بل في أعماق نفسه، فبرغم أن قادة جيش الفرس يعرفون أنه تم العفو عنه، إلا أنهم لا يهتمون أن يزول القيد عن الأسد الذي أهلك منهم الكثير فأثروا أن ينتقموا منه، قبل نزع القيد عنه، كما يحاول أن يبصق خنزير على أسد..!! وهو مطمئن أنه محجوز في قفص.

هكذا ظل أيامًا طويلة راقدًا يعاني من تلك الجراح وعندما تماثل للشفاء ارتدى ملابسه وهو يقول لنفسه:

- لا لن أدع الأيام تمر أمام عيني دون مقاومة.. مازال في هذا الشعب روح حرة لا يُحمدُها مغتصب، وأنا أعرف كيف أشعل لهيبها.

خرج «توزوي» من بيته إلى قلب المدينة، يرى أحوال أهلها، وما وصلت إليه البلاد، تحت حكم الفرس، الذين انتشروا، في الطرقات، يحملون أسلحتهم النحاسية البراقة، ويراقبون حركة العمال.. تعجب لأنه يراهم لا يعاملون، الناس بالشدة،

ويتحركون في الأسواق كأنهم من أهلها!! لكنه علم أن هذه هي أوامر «قمبيز» و أنه يعاقب بشدة كل من قام بالتعدي على المصريين ، وقد اكتفى بوضع نظام للضرائب، يقوم الجنود بجبايته من التجار والحرفيين، ويقوم الفلاحون بدفعه من محصولاتهم.. تقدم «توزوي» نحو بيوت البسطاء، وسار بين شوارعها الضيقة، حيث تقترب أسقف المنازل من الرؤوس، وبدأ يسير تحت مباني قديمة، ومتهالكة، متصلة ببعضها كمن يسير في سرداب مظلم، وهو يمر بأحياء العمال المكدسة بالأكوخ الصغيرة المزدهمة بالماريين حتى أنه من الصعب على المارة أن يشق لنفسه طريقًا، وهو يشعر بالحرارة المرتفعة، والروائح المنبعثة من البيوت، وبعد أن قطع شوطًا كبيرًا انتهى به المسير إلى ميدان فسيح، حيث سوق من أسواق مدينة «منفيس»، الحركة دائبة في السوق، والخوانيت عبارة عن خيام أو مظلات متوسطة الاتساع، وقد وضعت البضائع في الداخل والخارج بينما يجلس أصحاب الخوانيت القرفصاء وهم يرفعون أصواتهم العالية ينادون على بضائعهم، وازدحم الناس، كان بهم الكثير من الفينيقيين، والإغريق، نساء ورجال، من جميع الطبقات والأجناس يذهبون ويجيئون، حتى الأسر الفارسية امتلئت بهم الطرقات لقد بدؤا يستوطنون مصر، ويتعايشون فيها، ويتعاملون مع أهلها، يقيمون لهم البيوت، شعر «توزوي» بالغضب، هل نجح، «قمبيز» في إقناع الشعب بأنه فرعون عاد له ملكه.. لوهلة شعر بصعوبة ما هو مقدم عليه.. كانت القصور الملكية بحدائقها الواسعة قريبة، من مكان الأسواق، وبنيات البسطاء، لذلك أول ما فعله زيارته «لأبسمايك الثالث» في القصر الذي أودعه فيه ملك الفرس، مع علمه بما يحيطه من عيون جنود الفرس..

استقبله «أبسمايك» فرحًا، كان هذه المرة يتحرك كالبسطاء، وقد تخفف من الكثير من قيود السلطة والحكم، لم يعد يعتبر نفسه فرعونًا، سار معه في حديقة القصر.. وجلس بجواره على أريكة واسعة.. رانت بينهما فترة من الصمت، قطعها «أبسمايك الثالث» بقوله:

- تأخرت عليّ كثيرًا يا «توزوي».

- جراح الجسد تأخرت في الالتأم يا مولاي.

- وجراح النفس..؟

- لا يشفيها إلا الثأر.

- منذ عهد بعيد ونحن لا نفرق، كنت دائمًا الصديق الصدوق، والأخ المخلص، كم شعرت في الأيام الماضية بحاجتي إلى أن أنظر إلى نفسي في مرآتك الصادقة..، لم أعد أعرف..!! هل كان من الشرف والكرامة أن أقبل عفو «قمبيز» عني..؟ أم أن هذا نوع أكبر من ذل المنتصر لرمز الرموز في بليد فتحه، أخبرني هل كان الأجدر بالربان أن يغرق مع السفينة.

- ربما يكون ذلك، وربما يكون الإله قد ادخرك لأمرٍ أعظم، فقد وقعت الواقعة بالفعل، وليس لهذا الشعب من منقذ سوى سيده، وكل من يجيا على تلك الأرض الطيبة يعرف ذلك ويتنظره.

سار معه «توزوي» داخل الحديقة، وبعد أن تواروا عن العيون همس له «توزوي» وقد عاوده بريق عينيه القديم:

- مصر مازالت بحاجة إلى ملكها.. فهل أنت مستعد؟

فوقعت هذه الكلمات من نفس «أبسمايك» أبلغ موقع، وشرذ فكره هنيهة ثم انتبه يقول:

- وكيف لا أكون كذلك، وأنا أرى ما لحق بشعبي..!؟

- إني مستطيع أن أنصرك وأن يعود إليك ملكك فتنهض دولتك، وتطرد

الغزاة.

أرهف «أبسمايك» سمعه لكلام «توزوي» وقد شعر بالطمأنينة والارتياح ونظر

سأليه قائلاً:

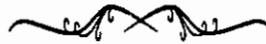
- وكيف السبيل إلى ذلك وقد تفرق الجمع.؟!!

- الشعب يغلي صامتاً يا مولاي، فجنود الفرس يتجبرون كل يوم وينهبون خيرات مصر.. والشعب لا يمكنه أن يرضى بمحتل مهما حاول ملكهم أن يتودد له.!! فلماذا لا نلهب الثورات ضد «قمبيز».؟!!

- الثورات..!!

- نعم يا مولاي وأنا سأجمع من فر من الجند إلى الواحات ، وأدربهم في أنفاق المعابد الآمنة، كل ما نحتاجه هو بعض الوقت.. ولن ندعه يعيش في بلادنا بسلام.. بل سيأتي اليوم الذي يندم فيه على مغامرته.. ثق بأنني قادر على إبلاغك ذروة مجدك القديم.. فكل مصري لن يقبل بغيرك يا فرعون حاكماً عليه.

- حسناً فلنبداً الأمر سرّاً حتى نجتمع أعواننا ونوحد الصفوف، ولا تفكر فيما قد يحتاجه هذا الأمر من مال، فبعض خزائن ذهب «أماسيس» في سرايب لا تستطيع أيادي «قمبيز» الوصول إليها.



أحلام في السجن

مرت شهور و«حاروز» بين جدران السجن يلاقي صنوف العذاب، لم ينطق بكلمة عن المؤامرة.. عن شركائه.. عنها.. حتى نسي «قمبيز» أمره وانشغل بتوطيد الحكم، وبناء ما تهدم.. والتقرب لآلهة المصريين..!!، ولو أدرك ملك الفرس أن هذا الأسير الأسمر الذي بين يديه هو الابن الأصغر لملك بلاد كوش وإثيوبيا «نستاسن» لتغيرت عنده الكثير من الأمور.

لم يبق لـ«حاروز» سواها تؤنس ليالي وحدته، صوتها الليلي الهامس يأتيه كما كان يأتيه دائماً.. مشحوناً بحنانها ليُنير ظلمة لياليه القاسية، وتتفجر القوة من جديد في جسده المُعذب المحموم، الذي لا يسمحون له بالموت.. فيُعاني سكرات الحياة..!

يرى طيفها، فيجتاحه طوفان من الفرح، وارتعاشات اللهفة، يهمس لها شوقاً، وهو يدرك أنه يعيش حُلماً، فيتجرأ أن يحادثها بما لم يكن يجرؤ على نطقه في واقع أيام سعادته بصحبتها.. تداعبه طفولتها معاً، فينطلق معها قلبه مرحاً في الأدغال..، يتوغلان في غاباتها المسكونة بأعمق الأسرار.. يستمع إلى ضحكاتها البريئة، وصوت غنائها الذي يولد منه الفرح، وترفرف حوله الفراشات البرية والطيور الملونة، وينمو لأجله العشب في الجبال، وتتراقص، له صفحة النيل طرباً..، وتكبر طفولتها فجأة، ويكبر معها حلمه

بها، وتبتعد بالتدريج.. يتمسك بحلمه.. يصرخ:
لا تذهبي «داشيتا» مُدي جذورك إلى لحظتي، فما زال نبضك ضربات قلبي..
ما زال الحلم من حقي..

لكن الفراق واقف بالباب.. هاهو «سكنن رع» يأتي من أعالي النيل، إلى جنوبنا
بأخذها ويمضي إلى بيته الآمن ليحلها معًا بالحياة والأطفال..
هل كان عليها أن تتزوج أحد أبناء العائلة.. أم أن «سكنن رع» هو من اختاره
قلبا.. فعليه هو أن يتعد..!?

يتحول الحلم إلى كابوس فتمتلك جسده رعشة خفيفة، ويبدأ الهذيان.. يتحول
الهذيان إلى حرب دامية.. يُسيطر «قمبيز» على دفة الحلم.. يتحول «سكنن رع» إلى
بطل، تتفجر دماؤه.. يختفي في قبر.. تعود «داشيتا» إلى عالمه لكن غناءها يتوقف..
وبسمتها تختفي.. يصمت ولا يرى سوى نظرات الانتقام.. لا يملك إلا أن يكون
ظلها الذي لا يفارقها خشية عليها.

ما زال «حاروز» غارقًا في أحلامه «وقد تملكته الحمى، من آثار جراحه
المُتخنة.. ما زال يُناديها في أحلامه يصرخ: «داشيتا» تعالي إلي.. كوني جناحي لأطير
من جديد.. داشيتا.. داشيتا.. أين أنت؟ كم أشتاق إليك..
- أنا هنا.. «حاروز» أفق.. رجاء! فليس أماننا سوى لحظات.

يأتيه صوتها دافئًا.. هل هو من أعماق الحلم..؟ أم أنه حقيقة تروي ظمأ نفسه
المشتاقة.. يردد الصوت... تتبعه اهتزازات من يديها الخائيتين..
- استيقظ.. أفق.. لم يعد أماننا وقت.. أسرع قبل أن ينكشف أمرنا، وأصبح
سجينة معك.

يفتح عينيه بصعوبة.. إنها هي.. «داشيتا» كيف هذا.. هل أنبت الحلم حقيقة..

هل..هل..

.. يأتي صوت القائد «توزي» غليظًا فيُفَيِّق ما تبقى لديه من أحلام:

- اتركه لي يا «داشيتا».. يبدو أنني سأضطر إلى حمله..

ينتفض «حاروز» واقفًا كالمسحور.. يرى حرس السجن.. ضحايا حوله..

- ماذا يحدث..! كيف أنتم..؟

تبسم «توزي»:

- حسنًا هكذا أفضل فحملك كان سيُصعب علينا الفرار.. أسرعوا..



واحة الموت



مع أول أضواء الفجر كانت هناك عربية حربية تجرها الخيول تُسرع وسط صحراء مترامية الأطراف، نحو التل الغربي، بالقرب من قرية البناءين، حيث بُنيت مساكن العمال من الحجارة الجيرية، واصطفت البيوت البسيطة المبنية من الطوب اللين حولها في نظام بدائي بسيط .. حرص «توزوي» على أن يتخفى هو ومن معه حتى لا تراهم العيون، فهو يعرف أين تقع نقاط المراقبة التي يحتلها جنود «قمبيز» المسئولون عن أمن القرية..

في الطريق قصت «داشيتا» على «حاروز» ما حدث للفرعون «أبسماييك الثالث» وما كان من عفو «قمبيز» عنه، وإبقائه مُعزراً مُكرماً في أحد قصوره هو ومن تبقى من عائلته، وأنه هو الذي سهل لها الوصول إلى زنزانته بعد أن طلبت منه المعاونة في الخفاء.. فاستشار في الأمر «توزوي» صديقه الذي كان قائداً لجيشه و الذي يعرف الدهاليز والأنفاق السرية وكل الطرق المؤدية إلى سجن قلعة منف الحصين.. وكيف أنه أعطاها بعض الذهب الذي سهل لها الكثير من الأمور.

في واحة قريبة توقفوا أخيراً بالعربة ليريحوا الخيل.. تنهد «حاروز» مرتاحاً وقد شعر بأن الحياة قد عادت إلى هدوئها المعتاد واستقرارها وأخذ يشرب بعض الماء البارد من النبع، ويغسل يديه

وينظف الجراح التي تلوثت.. لكنه رغم ذلك لم يستطع أن يمنع عينيه من الشوق إلى رؤيتها، تابعها.. لاحظته.. ابتسمت له فأحنى وجهه خجلاً.. مازال لا يقدر على البوح رغم أنه قال.. وسمعت.. وهو في غيبوبته الحاملة!!

أسند القائد «توزوي» ظهره إلى جدار من الطوب اللبن.. وقد وضع سلاحه بين قدميه حذرًا.. حاول أن يغفل قليلاً دون جدوى.. كان طيف «نيتيس» يداعب خياله.. أراد جاهداً أن يتحول اتجاه تفكيره بعيداً عنها، لكن قلبه الذي صحا فيه الحب القديم كان أقوى منه.

تذكر أيامه معها، التفاف أصابعها وهو يضم يدها الرقيقة إلى قبضته القوية.. يسير معها خفية بين المروج، والأزهار.. يراقب نظرات عينها الناعستين الحالمتين، رنة ضحكاتهما وشفيتها الرقيقتين كأنهما حبتان من الكرز، كانت أروع فتاة في الكون.. كم عاشا أحلامهما معاً، وكم حالت الأيام بينهما وبين هذا الحب الخالد.. لم يجروا أبوه على خطبتها من الفرعون «إبريز» رغم ما كان يتمتع به من مكانة وقوة بين وزرائه.. تحداه وأصر على أن يخاطبها بنفسه، لكن القدر سبقه، حين قُتل الفرعون وغُدر به، وانتقل الحكم إلى «أماسيس».. وقتل وسجن كل من حاول المقاومة من أسرتها، أما هي فقد احتفظ بها الفرعون بين جواريه، لتُعلم ابنته «نفریت» آداب بنات الملوك..

كانت أحزانها عميقة، وقلبها كسير، وما أكثر العيون التي كانت حولها، وجند الفرعون يمنعانه من الاقتراب من قصر «أماسيس» رغم محاولاتة العديدة.. إلى أن أرسلها الفرعون بخديعته إلى ملك فارس.. ولم يرها بعد ذلك، ولم يجروا أن يتزوج غيرها..

ظلت في أحلامه تسكن قلبه، وتنمو في وجدانه.. ولم يجد أمامه غير الجنديّة والمعارك القاسية مكانا يظفيء فيه لهب قلبه الدامي..

أفاق «توزوي» من أحلامه الوردية على واقعه المر.. هل عادت حقًا.. أم أن من عادت اليوم امرأة أخرى.. لا تعرف غير جبروت الانتقام.. حقًا إنها ظلمت، ولكن ليس من حقها أن تُعاقب شعبًا بأكمله، وتوغر صدر ابنها بعد أن صار ملكًا يحكم جيشًا جرازًا من الفرس، والبرابرة، والهمج ليقضوا على حياة وحضارة شعبها.

انتبهت «داشيتا» على خطوات جياد تقترب.. فأمسكت قوسها بحركة لا إرادية..

و على الفور قفز «توزوي» و أمسك بلجام الخيول التي تجر العربة و قد أدرك بخبرته الحربية ما يحدث .. صرخ فيهم محذرًا:..
- إنه كمين..

كان جنود الفرس يحيطون الواحة من كل جانب، بعد أن اكتشفوا اختفاء السجين، و مقتل الحرس، فاتخذ بعضهم طريقًا مختصرًا إلى تلك الواحة، و صدرت لهم الأوامر بأن تطوق كل القوات، مدينة البنائين، وقاموا بتفتيش كل بيت إلى أن اكتشفوا مكانهم في الواحة..

تبسم «توزوي» «لداشيتا» مطمئنًا ودفع لجام الخيول إلى «حاروز» وهو يقبض على سيفه بقوة و يُحكم قبضته على بلطته الحديدية القاسية ثم انطلق مُتجهًا نحو الجنود وهو يقول:

- عددهم ليس كبيرًا جدًا.. دعوهم لي فلطالما حصدت رؤوسا كتلك.. هيا أسرعوا.. انطلقوا أنتم نحو الجنوب.. مازال لديكم الوقت الكافي.. «حاروز» أنجو بها أنا أثق بقدرتك على ذلك، بسرعة.. هيا يا بنتي.. لماذا أنت واقفة هكذا ألا تسمعين.. اركبوا العربة واهربوا؟ هذا أمر..

لم تكن «داشيتا» بحاجة إلى توضيحات جديدة، و هي ترى سُحب الدمار تتجمع

غيومها من جديد منذرة بعاصفة فهاهو «توزوي» المقاتل الشرس «رفيق الساعات القليلة الماضية» في طريقه إلى موت محقق..

أحكمت قبضتها على قوسها، وشدت الوتر بقوة أكثر من مرة وفي ثواني معدودة كانت سهامها القاتلة تنطلق نحو أعناق الجنود المحيطين به.. بينما حمل «حاروز» جزع شجرة وجده قريباً منه وهاجم أول من استطاع منهم الاقتراب من «داشيتا» ومن أول ضربة صار يمتلك سيفاً جديداً ورمحاً لا بأس به، وانضم للقتال الشرس بجوار «توزوي».. وقبل أن تغلب الكثرة الشجاعة، كانت أجساد جنود الفرس قد بدأت تعرف طريقها إلى الأرض حيث دماؤهم المسفوكة..

سقط «توزوي» أخيراً مُثخناً في جراحه.. لكن سيفه لم يسقط..!! فقد كان عالقاً في رقبة قاتله..!! احتجز بجسده بعض الجنود وهو يأمرها بالهروب بعد أن لاحظ غبار خيول فرقة جديدة تقترب..

لم تجد «داشيتا» أمامها سوى أن تودعه بنظرة عميقة الأحزان، وهي تُدرك تمام الإدراك أن هذه نهايته، فأصاباته غائرة ولا شفاء منها..

في لحظات كانت تقفز هي و «حاروز» على ظهر العربة الحربية.. وبدأت المطاردة العنيفة.. بينما لفظ القائد البطل «توزوي» أنفاسه الأخيرة وعلى وجهه ابتسامة الرضا، وبين جفونه خيالاً جميلاً «لنيتيس» الشابة حبه القديم.

الهاربان



ما زال بإمكان الليل أن يخبئها بين ستائر ظلمته، بعد أن فعل «حاروز» المستحيل من جديد ليحميها، وقاتل كل من سولت له نفسه أن يصل سيفه إليها، ورغم إصابته وجراحه ظل صامدًا وتنقل معها من قرية إلى قرية، ومن الصحراء إلى ضفاف النيل.. حتى وجد لها ما تحتاجه من أمان.. تمدد ساعتها هادئًا على البساط الأخضر.. وهو الجريح المحموم..

حاولت تطيبه.. بما تملكه من أبسط الأشياء فمزقت قطعة من ثوبها الفضفاض، وربطت جرحه الذي كوته بالنار منذ لحظات، فتمزق قلبها لألمه النازف عرقًا، ودما.. رغم أنه لم يصرخ لم يسمح لضغفه بالرحيل بعيدًا عن صدره..! بل كانت ابتسامته تتسع، وتلمع أسنانه البيضاء، وهو يشعر بأصابعها الناعمة تتجول على جراح جسده مداوية..

ما زالت تتابع نظراته الحانية وهي تذهب سريعًا في عالم من الغفوة، التي تسلب الجسد قوته.. إنها تُدرك بفطرتها كم يُجبها.. تشعر بقلبه الذي ينبض عشقًا لها، ويفضح صمت لسانه.. دون أن تُدرك وجدت أصابعها المتلهفة تتحسسان شفثيه الغليظتين.. ووجهه الشديد السمرة واللمعان، تداعب شعره المُجعد وجبهته العريضة.. تمسح عرقه.. ترى في ملامحه طفولتها.. هل عاش

خلالها في أن أكرمه كما كنت أشتهي.. كان يصمت وابتلع تمردي بصبره، وحبه وثرائه الذي يُغرقني في هداياه.. لم أعرف خلالها هل كنت أحب زوجي أم لا.. حتى الجنين الذي نما في أحشائي، لم يكتمل ليربط قلبي به.. سقط مع من سقطوا في بداية المعركة.. كان هناك حاجز دائماً بيني وبين «سكنن رع» فأنا فتاة بريّة كاللبؤة الشرسة، نموت وترعرعت على الحرية والانطلاق، ولم أرقبه قيدي فهو ليس اختياري بل إنه هدية الفرعون، ورجله القوي، وهبته لنا، وعطاؤه لمن أطاعه.. لذلك لم أحاول أن أرى داخله، أو أصدق عواطفه، وكنت أعتبر فخره ببطولاته، هو قطعة الكتان التي يُلمع بها أو سمته التي ملأت بيتنا الكبير..

ولكن حين وجدته بعد المعركة يُعاني جريحاً سكرات الموت وحواله أربعة من الفرس غارقين في دمائهم..! وراية قُطعت يده دونها.. نظرت إليه.. كان للمرة الأولى عارياً من ثروته وسطوته، خالي الصدر من الأوسمة الذهبية لكنه كبير بشجاعته وبسالته.. وحين ضممته إلى صدري امتلأ قلبي حناناً نحوّه، وشعرت بأنني أمنحه قلبي وساماً، ولأول مرة بدأت أخطو في درب حبه.. ورأيت على وجهه ابتسامة الرضا التي فارقتني بها.. أقسمت ساعتها أن أنتقم له، ولأبي، وأخي الذان غادرا بلاد كوش.. بعد أن خلعا ملابس الكهنة وأقنعة السحرة.. وانضما إلى الشعب، وبقايا الجيش المدافع عن أرضه ليكونوا معهم صفاً واحداً في مواجهة الفرس حتى شربت الأرض دماؤهم الطاهرة.

نعم قد يحدث أحياناً أن نحب الرجل الخطأ.. أن نتزوج الرجل الخطأ.. لكن هل لابد من الفناء لكي نُصلح أخطاء ارتكبها غيرنا.

لقد انهار كل شيء تحول إلى طريق بلا رجعة.. الحياة موت مؤجل..

نعم فالموت يترصدنا منذ ولادتنا، وكل نفس نتنفسه وكل خطوة نخطوها، وكل وجبة نأكلها هي محاولة لمحاربة الموت ولكنها محاولة دون جدوى، نحب، نكره،

نفرح نحزن، نبني نهدم، كل شيء صار يفقد قيمته.

تنهت «داشيتا» على صوت حركة قريفة فانتفضت وقد خرجت من عالم الذكريات إلى دنيا الحذر.. زحفت بهدوء من الكوخ الذي يخبئهم نحو التلال المظلة على القرية، كانت حركات الجنود التي ما تزال تفتش عنها لا تهدأ.. وأضواء مشاعلهم تُهدد ظلام الليل.. ظلت تتابعهم دون حراك حتى مرت الكتيبة بالقرب منها وابتعدت..

نظرت «ديشيتا» نحو قارب مربوط بجوار النهر وقد وجدت فيه طريقاً للنجاة.. لم يبق أمامها سوى اللجوء إلى ملك بلاد كوش، ولعله أن يكون في عودة ابنه «حاروز» له نوع من السلوى، وقد يعاونها على الخطوة القادمة.



ملكة مصر وفارس



نظراتها النارية لا تعرف الهدوء أو السكينة، أما جسدها فهو
كتمثال عاد إلى الحياة

كيف لها أن تمنع تلك الكراهية التي نبتت في قلبها، تجاه «أحمس
أماسيس» الذي كان سبباً في إهانتها هي وأسرتها، وسلبهم
السعادة والملك الذي تربت فيها..

تلك الكراهية المدمرة التي ظلت تتزايد يوماً بعد يوم على مدى
سنوات طويلة في قلبها.. قلب «نيتيس»..

ذلك القلب الذي طار فرحاً لنصر ابنها «قمبيز» واعتلائه مُلك
آبائها، ورفعها بجواره على العرش.. لكن فرحته تكبلت في
لحظات، وتحولت إلى نيران تحرق صدرها حين علمت بعفوه عن
«أبساتيك الثالث» هو ومن تبقى من أسرته.. لم تتمالك غضبها
أخذت تصرخ بين جواربها، وقد احمر وجهها الأبيض النقي.

- أحمق كأبيه.. كيف يعفو من انتصر..!! كيف يهب لعدوه
قصرًا وحياة.. كيف يوقف سيل الدماء قبل أن يروي عطش
انتقامي..

لكنها تعرف «قمبيز»، وتعرف أنه تربي وتعلم.. كيف يكون
ملكًا.. قام بتربيته المعلم «كنترياس».. علمه أن كلمته قاطعة
كسيفه، فكيف تستطيع أن تجعله يعاقب بعد أن عفا..؟

ثلاثة شهور، لم تنم لها عين، ولم تغفل عيونها المُنَدسة عن مراقبة قصر « أبسما تيك الثالث » مهما كلفها هذا من ذهب.. تأتيها التقارير كل يوم.. متى ينام، متى يأكل..؟ متى يشرب..؟ متى يَغْدُر..!!!

نعم كانت تدرك أنه سيغْدُر، فلا يمكن للملك مثله أن يترك ابنها يهنا بعرشٍ أسقطه من فوقه.. مهما عفا عنه، ولن ينسى أيضًا دماء ابنه الذي دُبح بلا رحمة، ولا دُل ابنته وهي تسقي جنودهم، ومهما كان حذره.. فلا بد له من سقطة..!، وظلت تلك السقطة هي حلمها، الذي سينزع عفو «قميز» عنه..

هذا العفو الذي رغم غضبها منه إلا أنه ملاً نفسها بالنشوة والراحة لأنه شمل أيضًا القائد «توزوي» حبيبها القديم والوحيد.. ذلك الرجل الذي كان مجرد وقع خطواته ورنين صوته كافيًا بأن يجعل قلبها يسبح في بحرٍ من المشاعر الدافئة، كم تمت أن تراه.. بل أكثر من ذلك، فقد عادت تبحث في مقتنيات القديمة عن بردية حب أرسلها لها يومًا.. ضمتها إلى صدرها، وعادت معها إلى زمان قديم متخطية السنوات بأحلامها العاشقة، أغلقت عليها بابها، واحتضنت وسائدها.. ظلت برهة لا تجرؤ على فض البردية حاولت منع ارتجاف يديها، وكأنها تتلقاها للمرة الأولى ثم قاومت ضعفها وراحت تقرأ، وتقرأ تستعيد الكلمات التي تتراقص على أوتار قلبها، وكأنها تستعيد معها شبابها و صباها، وما إن أتمتها حتى تهاوت على سريرها و أغمضت عينيها، في فتور حالم و أخذت تستعيد ما قرأته، فشعرت بنشوة غامرة.. لم تعرف معها كيف تتناسك، حاولت..!! وكَبِرَ عليها أن تذوب صلابتها عند تذكرها لنداء حبها الأول، وأن نخونها مقاومتها لكنها شعرت بنشوة غامرة.. و تدفق حبه من جديد كالشلال إلى نهر قلبها الساكن، فتحركت أمواجه مضطربة، حتى كادت أن تنسيها كل أحزانها، وبدأ القلب الجامد يرق...

اقتربت وصيفتها ومكمن أسرارها «تيترو» من الباب بحذر، دقته برقة.. فأفاقت «نييتيس» من أحلامها منزعجة.. التفتت.. صرخت بلا وعي..:

- ما الأمر يا «تبترو» ألا أستطيع أن أخلو بنفسى لحظات.

أجابت الوصيقة بحذر:

- عذراً يا مولاتي، ولكن معي من الأخبار ما يسرك، لقد جاء من تنتظرين.

لوهلة كادت أن تنطق باسمه قائلة: من «توزوي» لكنها تماسكت وانتبهت قائلة
- من تقصدين..؟

- «حور أب» يا سيدتي عينك المخلصة على «أبسما تيك الثالث» الفرعون الغابر

جاء يحمل أخباراً هامة.

دفنت «نيتيتس» البردية في صدرها بالقرب من قلبها بحركة لا شعورية،
وانتفضت قائمة، وقد حاولت أن تعيد ذلك الوجه الجامد الذي كانت تخفي خلفه
ما تبقى لديها من ضعف.

تقدمت نحو الرسول وقالت بجدية:

- ماذا لديك يا «حور أب»..؟

رفع «حور أب» رأسه في فخر قائلاً:

- لقد وقع «أبسما تيك» أخيراً يا مولاتي، ولم يعد أمام «ملكنا قميز» إلا أن

يسحب عفوه ويقطع رأسه.

هبت فرحة:

- كيف..؟ أخبرني يا بشير الخير لعلني أمنحك ذهباً.

- لقد تأكدت قيادته للثورات ضدنا وتأليب الشعب، وعرفنا أماكن تدريبهم في

المعابد، وهناك ما هو أكثر.. لقد قام قائد جيشه المنهزم «توزوي» بتهريب المجرم
الأسود الذي حاول قتل الملك بسهمه المسموم.

رغم كل شيء شعرت برجفة في قلبها لسماعها لاسم «توزوي» إلا أنها أسرعت

تستكمل الأخبار:

obeyikan.com

دم الثور الأسود



هذه المرة كانت ساحة المحاكمة منعقدة.. يحضرها، بسطاء الشعب، وكبرأؤه.. يراقبون بأعينهم ملكهم، وهو يُكمل مسيرة نضاله، شامخاً برأسه الذي يُفضل الفناء على الانحناء..

كانت الملكة «نيتيتس» رغم أحزانها العميقة تراقب المرحلة الأخيرة من الذل التي أرادها ابنها للملك المهزوم.. فهاهي تجني ثمرات ما غرسته.. لم تستطع أن تترك هذا المشهد يمر عابراً دون أن تملأ عينيها منه، خرجت من قوقعة ودعت كل من تبقى من أسرتها، وذبحت لهم الذبائح، تمنّت أن تنسيها دماء «أبسمايك الثالث» مقتل «توزوي» وتبعد عنها شبحه الذي لا يفارق أحلامها.

أما الموت الآن فلم يكن يُعني شيئاً بالنسبة للفرعون، فهو في قرارة نفسه يشعر براحة الضمير.. نعم فقد كان غزو فارس لمصر نتاج أخطاء غيره، لا أخطائه هو.. ثغرات وضعها والده الفرعون «أماسيس» في نظام الحكم وكبرت مع طول حكمه، وعلى رأسها اعتياده على الخونة والمرزقة، وإنفاقه الذهب عليهم، وتسريحه لمعظم الجيش المصري.. أما هو فيعلم أن الأرض لا يجميها إلا أصحابها، ولا يعرف قيمتها إلا من يولدون بين حناياها ويحيون من خيرها، وقد حاول قدر استطاعته فعل الكثير في الفترة التي سبقت المعركة، وحاول مرة أخرى بعد الغزو، وأنفق ما أمكنه على

إعادة تدريب الجيش، وتجنيد الفلاحين، لكن فقد «لتوزوي» كان أشد وقعا عليه فلم يكن مجرد قائد لجنده بل كان الرفيق والصديق والناصح المخلص.

تبسم «قمبيز» هازئا وهو يتحرك بحرية فاردًا يديه في فخر.. يدور بثقة حول «أبسمايك» قائلاً:

- لم أعد أشعر بالغبرة في مصر، صارت موطنًا جديدًا لي، وتواصلًا لدمائي الملكية التي تتدفق في عروقي.. نعم.. فأنا أحجل من نفسي أحيانًا كمن خان حبيبًا قديمًا اسمه بلاد فارس.. لكنها مصر التي يعشقها من عاش فيها، فما بالك بمن يملكها في قبضة يده ويتحكم في مصائر من بها.

توقف «قمبيز» فجأة و التفت نحو «أبسمايك» وهو يحاول إظهار بعض البرود:
- ألم أعفُ عنك أيها الفرعون..؟ ألم أكرمك أنت وأسرتك.. تركتك حرًا تنتقل من معبدٍ إلى معبد، تلتقي بالشعب وبالكهان.. فلم غدرت بي، وألبت الشعب ضدي..؟ هيا أجبني.. أسمعني كلماتك الأخيرة، قبل أن ترى عينيك عاقبة من استهان بعفوي، وتجراً على مقاومتي.

لم يهتز «أبسمايك الثالث» لتلك الكلمات الغاضبة، ولم يعد يخشى مصيره القادم، وهو يرى شعبه المترقب خلف أغلال الاحتلال لما سينطقه لسانه، نظر في عيني «قمبيز» بقوة، وقال بصوته الواثق:

- أيها الملك القوي المعظم في قومه قد تكون ملكت احترامي بعفوك عني لكنك لم تمتلك حريتي في المقاومة.

- المقاومة.. كان عليك وأنت تعيش في نعيمي أن تنسى تلك الكلمة، وتخلع من ذاكرتك ماضيك كله.

رفع الفرعون أنفه عاليًا وهو يُلقي ما تبقى في عمره من كلمات:

- لا يستطيع الإنسان أن يخلع ذاكرته كما يخلع ضرسه، يا بن «قورش» إن إخراج الأرض من داخل الإنسان غير ممكن، أما نعيمك الذي تحدثت عنه فهو ما اغتصبت مني فتلك أرضي، وذاك شعبي، والمقاومة كانت خيارى.

صمت «قمبيز» وهو يشعر داخله بالإعجاب والتقدير لهذا الرجل لكنه لن يستطيع هذه المرة أن يمنحه سوى الموت.. وهو يرى بعينه نظرات أمه «نيتيتس».. التي كاد يقتلها عفوه عنه في المرة السابقة.. أما موته فسيكون نوعاً من القمع يتوقف به سيل الثورات ضده..

صمت «قمبيز» للحظات ثم قال:

- لقد قلتها بنفسك.. هذا خيارك.. وعلى كل إنسان أن يتحمل نتيجة اختياره الخطأ.. نعم فقد قطعت بقولك كل السبل إلى عفوي.

أشار «قمبيز» للقاضي المحكمة كي يعلن حكمه المكتوب مسبقاً..

ارتفع صوت القاضي فصمتت الهمهمات:

- حكمنا عليه بالموت على الطريقة الفارسية.. الموت بشرب دم ثور أسود

قاتل..

تقدم الساقى نحو «أبسأتيك الثالث» وهو يحمل بين يديه كأساً كبيراً ممتلئاً بدماء ثور أسود..

لمعت عيون «نيتيتس» ببريق النصر، كادت تقف من شدة الانفعال.. وقال «قمبيز» بهدوء:

- والآن لنرى شجاعة الملوك.. هل ستتجرعه وحدك أم أنك بحاجة إلى من يسقونه لك جبراً.

تقدم «أبسأتيك الثالث» نحو الكأس وأمسكه بقوة، ورفعته إلى أعلى وهو ينظر

نحو شعبه الباكي.. نحو ابنته المتمزقة القلب نحو دموعها المتناثرة كحبات اللؤلؤ.. تبسم وقد لاح له طيف ابنه المقتول، وقرب الكأس من فمه هتف:
- ها أنا أموت وقد أديت كل ما أمكنني فعله نحو وطني.. لم أحن رأسي، فلا
تحنوا رؤوسكم أبدًا..

ثم التفت نحو «قمبيز» قائلاً:

- أيها الملك الفارسي اقرأ البرديات، وما كُتِب على جدران المعابد.. لترى تاريخنا.. ستدرك ساعتها أنه لم يحتل هذه الأرض أحد وبقي فيها، فهي أرض طيبة تحتضن أبناءها، ومن أحبها فقط، وتلفظ كل من اعتدى عليها وتقهق قاهرها.. فلا يجد المعتدي له فيها سوى قبر يؤويه والآن مرحبًا بالموت لألتحق بأبائي وأجدادي في الأفق.

رفع «أبسماتيك» الكأس على فمه، وشربه عن آخره.. مات على الفور.
وهتف الشعب له، تعالت صيحاتهم.. لم يمنعهم قمبيز..
بل قام، وحيا جثمانه.



الوزير الأعظم



هل تغير حقًا «قمبيز» أم أن مصر أسرته بجهاها.. إنه لم يعد له عمل سوى إصلاح الأضرار التي نتجت عن الغزو، حتى لقد منع رجاله عن التعدي على الأهالي.. هذه ليست عادته أيها المعلم.

ابتسم المعلم «كنترياس» وهو يرى هذه الحيرة على وجه الوزير الأكبر «ميجا»، ذلك الرجل الخمري اللون النحيل الطويل المشوق القوام كأنه رمح، الذي تعدى الحلقة الخامسة من عمره، ولم يزد الزمان إلا دهاءً، وأشار له من شرفة القصر إلى منظر النيل الخلاب، وحوله الأراضي الخصبة قائلاً:

- إنها مصر يا «ميجا».. كل فاتح عظيم يظل يفتح في البلدان ويضمها إلى مملكته، وهو يحلم أن يُنشئ حضارة، فكيف إذا فتح بلد الحضارة نفسها، بلد العلوم، ألم يحلم كل مثقف في بلاد فارس أن يتعلم يوماً هنا في جامعة «أون».. أول جامعة في العالم!؟ أم أنك اشتقت إلى التخريب وإشعال النيران.. في القبائل الهمجية التي طالما بسطت قوتك عليها.

نظر له الوزير بقوة قائلاً:

- أخبرني أيها المعلم الصالح، هل هذا حقًا «قمبيز» الملك المحارب المغامر الذي يفيض بالقوة، ويعشق السيطرة والغزو، ويحتقر التواضع والجبن، ولا يعرف التلطف والرحمة..؟ أم أنه

بن قورش الكبير.

- سيدي لقد خبرت الحرب، وطبائع الشعوب، ومعادن الرجال، وأنت أعلم الناس بمدى حبي لفارس، وملكها المعظم..

- لا تذكرني بشيء، فأنا أعلم الناس بك و بإخلاصك، وأعلم أنك في منصبك هذا منذ عهد قورش..

- حسنًا لقد اختصرت علي الطريق، فهل يُرضيك تقرب قمبيز من آلهة المصريين،.. هل كل هذا لإرضاء أمه « نيتيس » المصرية.. إن جنودنا يتذمرون، وقد رأوه ينادي بنفسه فرعونًا، وكأنه من المؤمنين بالإله آمون، وبالإلهة نيت.

تنهد المعلم «كنترياس» وقال ببساطة:

- وماذا يُضير جنودنا.. إنها دواعي السياسة يا «ميجا» فلو آمن به هذا الشعب فرعونًا و ملكًا عليه لنسوا أنه غازي وأطاعوه، فنربح شعبًا جديدًا وجيشًا يُدين لنا بالإخلاص، وقد خبرت بنفسك صلابة المصريين في القتال..

ظهرت نظرة السخرية على وجه «ميجا» وهو يقول بهدوء:

- فرعونًا..

داعب «كنترياس» لحيته البيضاء للحظة، وقال وهو يرمي الوزير بنظرة ثاقبة:

- إنه وريث شرعي لفرعونهم السابق «إبريز» جده لأمه أنسيت هذا.؟!

لاذ «الوزير الأعظم ميجا» بالصمت لحظات وبدى على وجهه الضيق.. ثم التفت إلى المعلم «كنترياس» قائلاً:

- لقد كان التحالف بين ملكنا «قورش» الكبير، وبين أحمس أماسيس بزواجه من تلك المصرية خطأ كبير منذ البداية.. فما حاجة الفرس إلى التحالف وقد غدوا يحكمون نصف الدنيا.. ولم ينج من غزوهم ساعتها غير مصر واليونان؟

- أنسيت أن الإمبراطوريات الكبرى إذا اتسعت رقعتها وتعددت أجناسها، فستبدأ بوادر التمرد تدب فيها، لذلك فقد كان «قورش» يحذر الحروب الكبرى مع الأجانب حتى لا تنتهز الولايات المتمردة فرصة غياب الجيش فتتفض عليه؟
- لكن هناك ما أخشاه، ولا يمكن كتمانها.

- إذا أفصح به، و لا تؤجل ما جاء بك إليّ.

- لقد دسست رجالي بين المصريين، وعلمت بأن كهنة آمون تنبئوا بهزيمة «قمبيز».. وهذا آثار فرحة غامرة بين طوائف الشعب، و انهمرت القرابين لمعبده الكبير بواحة سيوة.

ظهر الإضطراب على وجه المعلم وقال بامتعاض:

- إن علم «قمبيز» بذلك فسيجبر هذا على شعب مصر حربًا طاحنة..

أحنى الوزير رأسه ثم رفعها في إصرار وابتسامة ماكرة لم يستطع أن يخفيها وهو يستعد للانصراف وقال بحدة:

- يجب أن يعلم.. فكرامة ملكنا تساوي الكثير.

تنهد المعلم «كنترياس» وهو يراقب خروج «ميجنا» من القاعة وقال هامسًا:

- ما أراد هذا استشارتي، ففي صدره نيران كانت بحاجة لبعض الخطب كي يزداد لهيبها، مازلت في حيرة من أمره ولا أدري هل هو صديق ودود.. أم هو عدو لدود.

وقبل أن يعود المعلم «كنترياس» إلى مجلسه جاءته إحدى الوصيفات تطلب منه الحضور إلى جناح الملكة «نتيس» فهي بحاجة لاستشارته.. تبسم المعلم هامسًا:

- ما أكثر من هم بحاجة إلى استشارتي اليوم.



المرض القديم



عندما فُتح باب الجناح الخاص بالملكة داعبت رائحة العطور و
البخور المنبعثة أنف المعلم.. تقدم نحو الردهة الواسعة والجواري
يُفسحن له المجال إلى أن وصل إلى أريكة مذهبة وملونة بألوان
زاهية، عليها وسائد محشوة بريش النعام، وقد جلست فوقها الملكة
«نتيتس» بين وصيفاتها، كأنها زهرة في بستان، و أمامها طبق من
الذهب مملوء بشتى أنواع الفواكه وما إن رأته حتى أشارت إليهن
بالانصراف، وقامت مرحبة، وهي تفسح له المجال للجلوس قريباً
منها:

- إنه لمن دواعي سروري أن أرى المعلم والطبيب الأكبر
«كنترياس» في جناحي الخاص رغم أنني أجهدتك بالمسير إلى..
- قد كان لي دائماً شرف لقاء الملوك العظام في أجنحتهم
الخاصة يا مولاتي.

شعرت «نتيتس» بشيء من الفخر عند سماعها لهذه الكلمات...
هذا الرجل يعرف كيف يُرضي شيطان العظمة المتربص بداخلها...
تبسمت وهي تُقدم له بيدها عنقوداً من العنب:
- مازالت حكمتك تفيض علينا رغم انطواء عامك السبعين.
تبسم قائلاً:

- هذا العام ودعته منذ زمان طويل..

وعندما قرأ الدهشة في وجهها أكمل قائلاً:

- تلك أعضاء حفظناها صغاراً فحفظتنا كباراً يا مولاتي..

- لو كان لبشر خلود في الدنيا لكان لمثل من هم بحكمتك سبق في الاختيار
أيها المعلم.

ضحك «كنترياس» من هذا الثناء ورفع يديه قائلاً:

- وما حاجتي إلى الخلود إذا كان طول العمر يُجني الظهر ويُبعد الجلد،
ويُضعف البصر، ويجعلنا بحاجة إلى عون من كنا نعينهم، فيتحكمون في مصائرنا كما
يتحكم الطفل في لعبته..

صمت لحظة ثم استطرد قائلاً:

- ولكن اعذرني ملكتي الغالية إذ يغلبني فضولي، فدعوتك لي كانت أبعد
الأمور إلى خيالي، فأنا لم أدعى لجناحك هنا من قبل ولا في فارس، ولم أنل هذا
الشرف وذاك القدر من قبل.. لذا أتساءل فيم أردتني الملكة؟!!

- حسناً.. أنا أعلم الناس بطبعك، ولن أثقل عليك، سأدلي بما عندي بلا
مقدمات..

.. أخشى على «قمبيز»..

- بمن..؟

- من نفسه..

- كيف ذلك..؟

- أنت تعلم بأنني أسعد الناس لتقربه إلى أهتي، إلا أنني أراه قد أخطأ بتعيين
«وزحاررسن» طبيباً خاصاً له.

تعجب المعلم وهتف قائلاً:

- «وزحاررسن» ألم يكن هذا الرجل هو قائد الأسطول المصري الذي تعاون معه في الفتح.؟

- تقصد الذي خان بلاده.؟ من الأفضل أن تُرجع الأمور إلى نصابها عندما نتحدث بعد أن عادت إلينا بلادنا.

- نعم . نعم .. ومن يُحْن مرة تسهّل الخيانة عليه .. أليس هذا ما أردتِ قوله..؟
- بالفعل..

- ما علاقته إذًا بالطب.؟

- إنه طبيب ماهر فقد درس الطب على يد كهنة معبد «سايس» وتخرج أيضًا من جامعة «أون» وعمل بها فترة من الزمان قبل أن يلتحق طبيبًا بالجيش، ويصبح مع مرور الزمن قائدًا للأسطول..، أعطاه «قمبيز» مناصب أخرى نظير خدماته له فقد جعله أيضًا رئيس المراسيم، و مرشده إلى العادات المصرية القديمة، الدينية منها والاجتماعية.

- وما مدى تأثير هذا الداهية عليه..؟

- لقد جعله «وزحاررسن» يتخذ خمسة ألقاب فرعونية، كما هي عادة الفراعين عند توليتهم لعرش مصر، وقد أُلّف له هذه الألقاب و الأسماء وأوضح له الأهمية الدينية لمدينة «سايس» فقط (مدينته هو) ومسقط رأسه وقد بلغ الأمر حدًا لا يُستهان به، لقد ركع «قمبيز» لمعبودتهم «نيت» في معبدها وقدم لها القرابين.

تمللم المعلم «كنترياس في جلسته وقال لها:

- عذرًا إن كنت لا أحب أن تستخف مولاتي بعقلي، وأنا شيخ هرم، فأنتِ لم تأتِ بي من أجل هذا الأمر فقط، فكلها خطوات تؤيد وجوده كفرعون لهذا البلد، وأنتِ أكثر الناس سعادة بها، واستفادة من هذا الأمر، أما «وزحاررسن» فلن تحذلك الحيلة إن أردتِ التخلص منه.

ترقرقت دمة حبيسة في عينها وهي تتماسك قائلة:

- حسناً هناك ما هو أخطر من ذلك..

- وما هو..؟

- لقد عاوده مرضه القديم..

انتفض المعلم وقد تنبعت كل حواسه في لحظات:

- الصرع..!!

- نعم.. وأنت أدري الناس بما يفعله به..

و في لحظات فتحت سجن جفونها لدموعها المتسابة وهي تُكمل حديثها:

- وكم يكرهني ساعتها؛ لأنني كنت سبباً في هذا المرض عندما أوعزت إليه أن يقتل أخاه من أبيه «بورديا» لكي يعتلي العرش، ويملك فارس.. و من يومها وهو يخشى شبح أخيه الذي يُصاحبه في أحلامه، ويقوم من نومه صارخاً.

نزل الخبر على المعلم «كنترياس كالصاعقة، و في لحظات بدأ يُدرك الخطر، ويقرأ في عينها الباكتين ما أرادت أن تقوله.. حقاً من الخطر وجود الخائن «وزاحرسن» قريباً منه بل وطبيعياً له، وماذا يُمكن أن يحدث لو علم الشعب، وكهنة آمون أن القائد العظيم و الفرعون الحاكم «يُصرع».. وماذا لو جاءه الصرع بينهم..؟

ظلت الأفكار تتلاحق على عقل المعلم، لكنه انتبه من أفكاره فجأة، وانتفضت الملكة «نتيتس» من مكانها وهي تمسح عينها، وقد تناهى إليهم صوت «قمبيز» الغاضب، وهو يعبر الردهة متجهاً نحو جناح الملكة.



الحملة الحربية



ما هي إلا لحظات حتى كان «قمبيز» قد هرع إلى جناح الملكة، واقتحم بابها بعنف، وصوته المرتفع يسبقه..

- أخبريني، أيتها الملكة المصرية، يا سليلة الفراعين العظام.. ما تلك القوة الخفية التي تُكره الملك المرتفع الشأن على الانخفاض إلى الأدنى..؟ وكيف يُمكن لكهنة هذا التمثال العتيق، أن يتنبؤوا بهزيمة أعظم ملوك الأرض..؟! كيف يمكن للفأر أن يزلزل عريننا لأسد..!!

لاحظت الملكة وجود الوزير الأعظم «ميجا» وهو يتسلل داخلاً خلف «قمبيز» كأفعى بينما ذهل قمبيز» وهو يرى المعلم «كنترياس» في جناح الملكة.

شعر الوزير «ميجا» برياح المؤامرة.. بينما تبسم «قمبيز» لمعلمه متسائلاً وقد خفض من صوته، وتناسى ما جاء لأجله:

- أي ريح طيبة أتت بك أيها المعلم الصالح..؟!

تبسم المعلم، وقد أسعفه ذكاؤه قائلاً:

- نفس السؤال الذي جئت تسأله للملكة.. ما قوة كهنة آمون..؟ وعلى أي شيء يُسيطر معبدهم..؟ فقد أخبرني وزيرك المبجل بما تنبأ به كاهنهم الأكبر، وكما تعلم أن ملكتنا العظيمة هي أدرى الناس بخفايا وأسرار القوة في قومها.

خلت القاعة في لحظات، وصمتت كل الأصوات إلا صوت «قمبيز» الغاضب الذي ظل يخفّفت بالتدريج ويتحول إلى تشنجات، تقلب بعدها على الأرض وهو يضغط على أسنانه بقوة، وفقد تحكّمه في نفسه، بينما عاملت «نيتيس» الأم هذا الأمر بحكمة وخبرة حانية.. حتى مرت الأزمة.. لكنها هذه المرة كانت أطول وأشد من المرات السابقة، حتى أن الملكة العظيمة انهارت وفقدت تماسكها وهي تحتضنه وتغسل وجهه بدموعها.

أفاق «قمبيز» بين أحضان أمه الباكية وهو يتصبّب عرقاً، نظر إليها بوجه مُتعب، حاول أن يتحرك.. كان جسمه كله مُنهكاً.. تماسك، قليلاً وقطب جبينه، وهو يدفعها بعيداً عنه..

مسحت شيئاً من دموعها قائلة:

- لم تُصر على هذا الجفاء يا بُني..؟ حتى في تلك اللحظات تدفّعتني بعيداً عنك!!

تماسك وهو يحاول النهوض من مكانه شاح بوجهه بعيداً وهو يتجنب نظراتها قائلاً:

- أنتِ أدري الناس بالأسباب يا «نيتيس».

- هذه المرة أيضاً لم تقل يا أمي.. سنوات طويلة وأنت لا تعاملني كما يُعامل الابن أمه..

ارتفع صوته غاضباً وهو يُشّيح لها بيده:

- أما يكفيك ما جعلتك فيه من مجد، لقد صرت ملكة مصر وفارس، ألم أحقق حلمك؟! وأجلسك بجواري على عرش آبائك وأجدادك.

- لكنك تغيرت من ناحيتي، أين عطفك وحبك، أين وجهك الحنون، وابتسامتك الصافية التي كانت تُشرق على أيامي.. أنني أفتقدك يا «قمبيز» أفتقدك..

أنسيت أنك وحيدي، وقررة عيني.. كلما نظرت إليك باحثة عن عطفك واجهتني بنظرات جامدة، خالية من مشاعر الحب، لم أعد أجدك في عالمي أين أنت؟ أين ولدي..؟

تحول بريق عينيه في لحظات إلى نيران مشتعلة هتف:

- ولذلك.. لقد ذهب مع من ذهب به خنجري..

- مازلت تُحملني ذنب قتلك لأخيك «بورديا».

- وكيف لا تريدني تحمله..! وأنت التي ضيقت علي الدنيا يوماً.. حاصرته بمؤامرات تُحاك من حولي، حتى أظلم الكون ولم يكن من ضوء أمامي سوى دمه الأحمر المتدفق... مازال يتدفق من يومها أمام عيني بلا توقف.. مهما أرققت من دمائه بعده.. تبقى على يدي آثار الدماء الأولى.. دمائه.. هابيل خير ابني آدم..

تماسكت «نتيس» و عادت إلى شموخها ومدت يدها بتلقائية لتُصلح، ما تهدل من ملابسه وهي تقول بهدوء مُصطنع:

- لقد انتهى هذا الأمر منذ زمان بعيد، وملكت فارس.. ليس فارس وحدها ملكت مصر.. ملكت الدنيا كلها.. صرت أعظم ملوك الأرض،.. فلا تحزن على لحظة شجاعة هزمت فيها ضعف نفسك.. فلولا تلك اللحظة الفاصلة من العزيمة لكنت الآن مكانه مدفوناً تحت أرض فارس، وما كان سيحفل بك، ولا سيصل إلى ما وصلت إليه من مجد.. هل كنت تظن أن هذا التعيس ابن صُرتي الفارسية كان سيرتك تملك عرش أبيه..

وضع قمبيز وجهه بين كفيه صارخاً:

- إلى متى تُصرين على محاصرتي..؟ ألم يأن الأوان لتصمتي..؟

- أصمت..!! ولماذا أصمت..؟ إنها يصمت الإنسان العاجز، ويحني رأسه خجلاً عن خزي ارتكبه، وأنا لم أفعل شيئاً سوى أنني رأيت في عيني وحيدي بريق

الطموح، وشعرت بإرادته القوية، جوهر وجوده، وهي تهزم ضعفه، نعم.. رأيتُ القوة في عينيك أيها الشجاع، فحياة الضعيف حياة فقيرة، جوفاء مقززة، أما حياة القوي فخصبة كلها فيض وثراء.

- مازلتِ تتحدثين عن القوة والضعف، منذ وعيت على الدنيا وأنا لا أسمع منك سوى تلك اللغة.

- نعم لقد دربتك على الخشونة منذ حدثتك، ثم إن الشعب كان يخشاك ويرهبك لأنك «قمبيز» الجبار فيخشع لك صاغراً، أما «بورديا» فكان محبوباً من الناس دونها رهبة ذلك فقط لأنه كان شبيهاً بأبيه «قورش» وما كان يسوؤني شيء أكثر من أنه لا يمتاز ببطولة وأعمال عظيمة مثلك لتفسر وتبرر حب الناس له. أقربت منه وهي تلقي بكلماتها الثائرة:

- لقد كان أخوك بورديا ضعيف الإرادة رغم كرهه لك، ويتمنى موتك إلا أنه لم يكن يريد أن يخاطر بشيء، أما أنت فقد أردت المخاطرة بكل شيء.. نعم بُني.. فالضعيف يكتبني، بتجميع الأخطاء والشعور بالغضب، وتمني الانتقام.. أما القوي فيهجم في الحال قبل أن تنظفيء شعلة الحماس. - اصمتي كفى.. كفى..

- لا لن أكتفي، فلكل حقيقة عدة وجوه، لقد كانت المؤامرات تُحاك ضدك ليل نهار، وأنت أعلم الناس بفني في دس العيون، وتلمس الأخبار، وشراء الأنفس بالذهب.. - قُلت كفى..

أكملت وقد ارتفع صوتها في جنون غير مهتمة بغضبه:

- ظنوني تلك المحظية الضعيفة التي تستكين وتخضع مسلووبة الإرادة، وتفقد ابنتها، وتصمت عاجزة، وحيدة في بلادهم بلا حام، إن «قورش» لم يملأ عينه غيري

رغم كثرة نسائه، ومن حقي أن يكون وريثه هو ابني؛ لأنه أشرفهم نسبًا.

- كلانا ولد قورش، أنا وأخي «بورديا» أنسيّت.

- لا لم أنس، ومهما كان مُلك «قورش» وعظمته فأنت تتفوق على أبنائه بأنك

من نسل الفراعين آلهة الأرض.. دماؤك تختلف لأنها تستحق أن تسود ومن حق الآلهة أن تحكم العبيد.

صرخ قمبيز وقد فقد صبره..

- آلهة.. هاهاها.. يا لها من آلهة لا تقي نفسها شر الصرع.. تتمرغ في تراب

الأرض، مُتشنجة غير قادرة على السيطرة على نفسها.. يؤرق أحلامها شبح أخ مقتول..!! ترى دماؤه المسفوكة على يديها في منامها كل ليلة.. ما أحقر تلك الدماء التي تسري في العروق وتدعين أنها تُعبد..!!

ما أعجب قومك يا «نيتس»..!! إما أن يعبدوا بشرًا أو حجرًا، أو عجلهم هذا المُسمى «آيس».

- لا تسخر من العجل «آيس» فيؤذيك إنه إله الخصوبة ومصدر الخير لبلادنا

تريث، وفكر قليلًا فيما أنت مُقدم عليه..

قام «قمبيز» من مكانه وهو مازال يترنح.. إستند على الباب وقد تملكته ثورته قال:

- أنا لا أتردد في قرار اتخذته وإلا فالويل لي إن وقفت يومًا حائرًا بين «نعم أو

لا»، وأعدك أن أذبح هذا العجل الكريه يومًا بيدي..، أما الآن فسأسير إلى سيوة جيشًا عظيمًا ليقوموا بتخريب معبد آمون، ويتعقبوا هذا الكاهن اللعين الذي أراد أن يربح قرايين المصريين بتنبئه بمصيري.

وسأستفيد من هذا الجيش في تأمين الواحات، وإخضاع قبائل الليبيين هناك.

قال «قمبيز» هذه الكلمات وهو يصفع باب جناحها الملكي خلفه.. ولم يسمع

صوتها الهامس:

- لقد أصبحت أنت نفسك بحاجة إلى إخضاع.

كان أول ما فعله «قمبيز» عند وصوله إلى قاعة العرش هو استدعاء طبيبه المصري «وزحاررسن» الذي أسرع إليه ولم ينس كعاداته أن يحمل معه قارورة دواء أعدها من أعشابه لعلها تُهديء أعصاب سيده الثائرة.

حرص «قمبيز» على أن يختلي به فور وصوله بعيدًا عن العيون..

أسرع الطبيب يُقدم له زجاجة الدواء وهو يمدح ما فيها، ويخبره عن أسراره في الشفاء وتهذئة الأعصاب.

دفع «قمبيز» الزجاجة بعيدًا ثم التفت إليه قائلاً في صراحة أذهلته:

- «وزحاررسن» أنت تعلم جيدًا أنني لا أحبك..

فرمقه بذهول وقد شعر باقتراب العاصفة لكنه تبسم في برود ظاهر:

- ليس الحب هو كل شيء يا مولاي إنما يندم على الحب النساء.. ولكن ما

يقلقني هو.. هل يشك مولاي في إخلاصي له.؟

- أنا لم أُقربك مني من أجل إخلاصك، ولكن ما قربك مني هو عكس ذلك

تمامًا إن كنت تذكر..

- مولاي للحرب دروبها، وقد كنت أقود أسطولاً لرجل لا تفيض يدها بأكثر

من قوتي، وقد سحب مني بعد توليته الحكم كثيرًا من مناصبي الدينية في «سايس».

- حسنًا لم آت بك لأحاسبك، ولكن لأضع ميثاق عمل جديد.. فأنا أعرف

الشعابين و الحيات التي تبثها في كل مكان، وتأتيك بما خفي من أخبار، فكُن عينا لي

و ليس علي..

- مولاي أنا عينك الساهرة على أمنك.

تبسم «قمبيز» ساخراً:

- بقي شيء يجب ألا تنساه.. إن أردت بيعي يوماً فتذكر أن الثمن عندي أكثر سخاءً، والذهب أيضاً أشد نقاءً.

- وهل يبيع العبد سيده..!!؟

- ببعض الدواء..

انتفض «وزاحررسن» وتصبب عرقاً لكنه تماسك، وهو يرى عيني «قمبيز» المتفرستين الراصدين لانفعالاته فاستطرد يقول:

- لكني لم أفعل.

- وهذا الدواء..

- إن أردت أن أشربه أمامك شربته.

- ولماذا لم تبعني إذًا..؟

تردد «وزحاررسن» قليلاً لكنه نظر بحذر في وجه «قمبيز» قائلاً:

- قد اتفق مولاي معي الآن على أن أصدقه القول..

- حاول..

- فهل تعطيني الأمان..؟

- لك هذا.

- الثمن الذي جئتني قليل.

- كم دفع لك وزيرى الأكبر..؟

- يبدو أن مولاي لا تغفل له عين.. حسناً لقد عرض عليّ عشرة آلاف قطعة

ذهبية.

- لم أكن أعلم أنني غالي الثمن عنده هكذا فلم لم تفعل.؟
- إنه عندي ثمنٌ قليل.

- يالك من جشع وما الثمن إذا.؟

هز «وزاحرسن» رأسه ورفع أنفه العريض قائلاً:

- من يملك مصر وفارس لا يكون ثمن قتله أقل من مدينة عظيمة أحكمها
وأفوز بخراجها..

- ها ها ها.. يبدو أنك تعرف جيداً ما تريد.. حسناً الثمن عندي إذا وهو فوق
ما تحلم به.

- ثمن ماذا..؟

- عونك.. وعدم بيعك لي..

- لكني لا أبيعك فأنت..

- كل شيء حولي يباع، فلا تدعي الفضيلة.. أتعرف مدينتك المحبوبة
«سايس»؟ قريباً يصلها حاكم يكون له خراجها إن أخلص في تعاونه.. وإن غدر
يرها أكواماً من تراب.. تأكلها النيران وهو في جوفها.

هتف «وزاحرسن» في ذهول:

- مولاي أنا عبد إشارتك.

- فلتكن عيني على من في قصري من ملوك وقادة.

- ملوك..!! تقصد..

- «نيتيس».

- الملكة.. لماذا؟!!!

- ليس هذا شأنك، ولا تسأل عن شيء يكون فيه نهايتك.

- حسناً إنه أمر هين فبين وصيفاتها من يمكنه أن يحصي لي أنفاسها إن أردت..!! و الوزير «ميجا» ماذا أنت فاعل به يا مولاي.

- وزيرى اللعين سيؤدى واجبه إلى النهاية وعلى أكمل وجه، فسأرسله على رأس جيش عظيم قوامه خمسين ألفاً من الأشداء ليهدم هذا المعبد ويؤمن تلك الناحية من الوادي.

ترك «وزحاررسن» حذره وتحدث بلا وعي:

- مولاي «إن «ميجا» أخطر مما يبدو عليه، أنت تعطيه فرصة العمر، لو كنت مكانه لما ترددت في أن أنفصل عنك بهذا الجيش، سيصبح بذلك تهديداً لك... إنه لا يتوقف عن تأليب الجند عليك.

- هل تظنني في غفلة عما يفعله هنا مع الجند، وعن دوره في تلك المؤامرات القائمة ضدي في بلاد فارس.

- إذاً من الحكمة ألا تملكه منك..

- بل أعطيه ما يحلم به جيشاً جباراً، ومع الجيش من المخلصين.. من يأتونني برأسه إن داعبت الخيانة خياله.

هز «وزحاررسن» رأسه متشياً.. فهو لم يكره بداخله أحداً مثل كرهه للوزير «ميجا» ذلك الفارسي المغرور الذي يحتقر كل من ليس فارسياً.. أحنى رأسه لقمبيز حين أشار له بالانصراف، وانطلق في طريقه، وعقله لا يتوقف عن الحركة والدوران، وبدأت مدينة «سايس» تدور بخياله كالحلم الذي بات وشيكاً أن يتحقق.. رأى نفسه جالساً على عرشها يحكمها.. وبمجرد وصوله إلى مكان آمن بالقصر أرسل من يحضر له الوصيفة «نبترو».

أما «نيتيس» فبعد تلك المواجهة بينها وبين ولدها «قمبيز» أصبحت تحسب كل الخطوات القادمة، فهاهو يُصرح بكرهه لها، ذلك الكره الذي سكن أعماقه رغم

تناقضه مع كل ما حققه لها من نصر وجلوس على كرسي الحكم في مصر بجواره، إلا أنها تعرف جيداً أن الولد العطوف الذي كان يسكن بداخله قد كبر على شيء غير العطف، وأن الحروب والدماء استطاعت أن تصنع إنساناً آخر من إنسانه القديم، وإن ما يبقيه عليها الآن ليس سوى خيط رفيع من روابط الدم سيزول ويختفي يوماً بعد يوم، وعليها أن تحافظ بكل قوتها على ماتبقى منه.



ظلت أفكار الفتح، والتوسع تشغل عقل «قمبيز» فهاهو الجنوب حيث تكمن بلاد «كوش»، «ومروي» بثرواتها الطبيعية، فلا أمان للملكه بمصر في الشمال، إلا إذا امتلك معه الجنوب الأفريقي كله.. لذلك بدأ مع كبار قادة جيشه في وضع الخطط البعيدة المدى. وكان أول ما فكر فيه هو السيطرة على الواحات، وتأمين جنوب مصر، ثم الانطلاق نحو بلاد كوش ومروي، ومنها إلى إثيوبيا، وبعد أن أنهى اجتماعه بالقادة و حدد في عقله خطوات الأيام القادمة أراد أن يعرف أكثر عن تلك البلاد السمراء التي هو قادم لغزوها.. وكان هذا هو وقت الفيضان فقرّر إرسال سفينة بها بعض السفراء إلى ملك «كوش» يحملون معهم الهدايا الفاخرة، ويدرسون الطريق و مواطن الضعف في تلك البلاد.. ثم أرسل بعدها يستدعي «وزحاررسن»، وكان بحضرة يومها المعلم «كنترياس» الذي رغم شدة بغضه «لوزحاررسن» إلا أنه يحترم عقله الكبير، وخبرته، ويرى أنه فرصة كبيرة لمعرفة طبائع، وحضارة هذا الشعب، وما يجاوره من بلاد وشعوب لذا سأله في حضرة «قمبيز» قائلاً:

- أتعرف بلاد «كوش» أيها الطيب المُجرب «وزحاررسن» .

تنهد «وزحاررسون» وقد أسعده أن يوجه إليه المُعلم هذا السؤال في حضرة ملك بلاد فارس ومصر فقال:

- إنها أرض النوبة بلاد الذهب والكنوز، بلاد الغاب والعاج، وجلود الأسود، والنمور، سائرهما زرقاء صافية، وشمسها نار حامية، رمالها حبيبات تبر، وأشجارها صنت تفيض بالصمغ، زرعتها أخضر، مبارك يشرب من وسطه النخيل ملوحاً بالسباطات المثقلة بالبلح، بشرى للاكلين.
- ورجالها..

- سود الوجوه بيض القلوب، أشداء في الحروب، بسطاء في حياتهم، أدقاء في رميهم، يحسنون صنع سلاحهم.. لا يعتدون إلا إذا اعتدي عليهم، حكمتهم مصر قرونًا عندما تفرقوا، وحكموا مصر قرنًا من الزمان عندما اتحدوا.. وتفرقنا! ثم قويت شوكتنا، فرددناهم إلى بلادهم، ولأن بيننا أنساب ونيل واحد يسري في عروقنا فقد وضع الزمان بيننا جسرًا من المودة والحب والصدقة، واتصلنا وارتبطنا بقوافل التجارة. لذلك نصيحتي لك يا مولاي إن عزمت على فتح تلك البلاد أن تعتمد على الفرس والبيزنطيين المرتزقة ولا تتخذ من أهل مصر جنودًا في تلك المعركة فإنهم لن يقاتلوا إخوانهم، وأن وجدوا الكفة تميل عليك كانوا معهم عليك.

حرك المعلم «كنترياس» رأسه في سرور:

- ما أروع ما قلت أنت حقًا حكيم.

تبسم «قمبيز» وهو يقول:

- إذا فليكتمل الرباط مرة أخرى أيها المعلم، ولكن تحت حكم واحد، هو

حكم «قمبيز بن قورش» سيد العالم.



فأسرع وهو يشير إليها أن تلحق به.

- إن أمي تنتظرنا في القصر، وقد خبزت أرغفة شهية وأعدت طعامًا طيبًا

«قالت إنه لك.

- إذا هيا بنا.

قفز «حاروز» داخل زورقه وسحب بهدوء شبكته التي كان قد بسطها في الماء،

فتقاذف السمك النيلي يحاول الفرار من بين خيوطها الدقيقة، ويرتد داخلها يائسًا..

ضحكت «داشيتا» وهي ترى هذا الصيد الوفير، وساعدته في إفراغه في سلته،

وبعد دقائق كان الزورق يتحرك خفيًا على صفحة النهر و المياه تترقق تحته وقد

لمعت أشعة الشمس بوجهها فصارت كأنها الذهب.

أخذ «حاروز» يجدف بهدوء، ويمر بالقرب من أكواخ الصيادين المتراصة على

جانبيه متجهًا إلى قصر حاكم «بلاد كوش» الواقع على مقربة من ضفة النيل وكان

مبنيًا من الحجارة المنحوتة من الجبال على مساحة شاسعة من الأرض وحوله عُرف

للحرس من الحجارة والطوب اللبن غُطى سقفها بسعف النخيل.. يُحيط القصر

سور سميك أبيض تُزين جدرانه زخارف بدائية زاهية الألوان.

ربط «حاروز» قاربه في عارضة خشبية أُعدت لذلك، و حيا الحارس البدين

«بويا» الذي أشرق وجهه الممتليء بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الصفراء

الكبيرة..

أسرع «بويا» يُفسح لهما الطريق ويفتح الباب الخلفي المؤدي إلى القاعات الملكية

الخاصة بنساء الملك، وهو يُحدث «حاروز» :

- أسرع يا سيدي فرائحة الطعام شهية.

- حسنًا أيها العم الطيب سيأتيك نصيبك بعد لحظات.

- هذا حقًا حديث الحكماء.

تجاهلت «داشيتا» كلامها فهي تعرف إلى أي بُعد ترمي تلك العجوز الطيبة الوديدة المضيفة، ذات البشرة السوداء اللامعة، والعيون العسلية البراقة الحانية المتطفلة.. تكلمت وهي تُشير نحو العسل:

- هذا العسل شهبي.

- نعم فقد أحضره «حاروز» من شجرة عالية، ونجح في الإفلات من النحل بعد أن نفخ دخان النار في الخلية.. ألم أقل لك إنه يُحسن كل شيء.

بلا وعي التقت عينا «داشيتا» بالباسمة بعيني «حاروز» الخجلتين ولم تستطع أن تكتم ضحكة صغيرة.. انفرجت على أثرها أسارير الأم وأكملت:

- في كل يوم أحضر له عروسًا، كُلهن من بنات السادة، وجاهنن بلا حدود.. لكنه يُخذلني دائمًا، ويتركني حائرة لا أدري ماذا أقول لأمهاتهن.. وأنا أحلم كل يوم بأولاده كالنساء الصافية يملأون قصر أبيه الكبير.

أنهى «حاروز» طعامه بسرعة، وقام ليترك لهما المجال قال وهو يفتح الباب:

- لقد اصطدت الكثير من السمك اليوم يا أمي سأحضر لك السلة لتقوم خادمتك بتنظيفها.. آه كدت أن أنسى أعطني بعض الطعام لـ «بويا» فقد قتلته برائحة طعامك..

ضحكت الأم وهي تضع له بعض الطعام والأرغفة الساخنة في سلة قائلة:

- هذا رجل ذواقه يعرف قيمة الطعام الجيد.

راقبته الأم «بيرما» حتى خرج، وقد وجدتها فرصة للإنفراد بـ «داشيتا» قالت وهي تضرب كفًا بكف:

- أخشى أن تكون ساحرة قد سحرته، أو غانية قد ملكته..

ثم ثبتت عينيها في عينيها:

- كيف أبدأ الحياة من جديد، وأنعم بها.. أبي، وزوجي، وأخي وابني الذي أجهض وهو في شهور الحمل الأولى.. مازالت دماؤهم تجري وتندفع أمامي كالشلال تطالني بالانتقام..

رفعت «بيرما» صوتها متعجبة:

- بمنَ تنتقمين يا بنتي..!، إنها الحرب خسر فيها من خسر، وفاز فيها من فاز، وصارت حديث الملوك وصراعهم، ومن مات فيها من أهلنا مات شريفاً مدافعاً عن أرضه، في يده سيفه، ولم يولهم ظهره، فلا تُحملي نفسك فوق طاقتها ولا تمنيتها بأكثر مما تستطيعين، فأنتِ امرأة ضعيفة وحيدة خلقت ليسكن إليها زوجها.. فكيف تحلمين أن تنتقي من أقوى ملوك زماننا.!!؟

نظرت إليها «داشيتا» بعينين مألهاً التحدي:

- مازلت أستطيع.. وإن لم أنجح فسألحق بمن فقدت.

جمعت الأم «بيرما» أطباقها لتغسلها في دھول من خادماتها..!! نظرت نحو «داشيتا» بضيق وقد ملأ صدرها الانفعال، وشعرت بما يشعر به ابنها «حاروز».. قالت دون أن تُخفي صوتها غير مبالية وهي تُحدث نفسها:

- مسكين أحب صخرة لا تشعر به.!!

خبأت «داشيتا» ابتسامة مأكرة وأسرعت تخرج من باب الحجر لتلحق بـ«حاروز» الذي كان قد تعمد البقاء بالخارج أطول فترة ممكنة لعل أمه تنجح في تحريك ما لم يستطع تحريكه من مشاعر طوال الفترة الماضية، وعندما رآها تخرج أسرع نحوها مضطرباً متوتر الأعصاب يراوده الأمل.. لكنه لاحظ الانكسار في نظرات أمه وهي تتابعه من طرف الباب..

توقف حائرًا لكن الحارس «بويا» أسرع نحوهما وعلی وجهه علامات البُشر:

- سيدي لقد وصل رسول من مصر، ولديه الكثير من الأخبار.

خفق قلب «داشيتا» بعنف، وأسرعت معها نحو القصر.
رحب «حاروز» بالرسول وأجلسه بجواره وطلب من الحرس أن يحضروا له
الطعام والشراب.. لكن «داشيتا» لم تطق صبراً فسألته متلهفة.
- ما الأخبار في مصر..؟ وماذا فعل «قمبيز» بأهلنا.؟ وإلى أي مدى بلغت
جرائمه.؟

تبسم الرسول وقد أدرك مدى أهمية الأمر بالنسبة إليها فقال:
- حاول ملك الفرس التبسط، وإصلاح ما أفسده جيشه لكن كاهن معبد آمون
بواحة سيوه تكهن بهزيمته فاستشاط غضباً، وأرسل جيشاً عظيماً قتل الكاهن وهدم
المعبد.

انفجرت «داشيتا» صائحة في غضب:
- إلى هذا الحد بلغ إجرامه يتجرأ على هدم المعبد.. ألم يكفه قتله للفرعون..؟
نظر «حاروز» للرسول وقد بدأت علامات الاهتمام تظهر على وجهه وقال:
- جيش كامل من أجل هدم معبد.. أليس هذا عجيبياً..
- هذا الجيش استمر في طريقه يا سيدي لكي يُخضع قبائل «لوييا» لسلطان
الفرس.. وما زال في طريقه يقتحم الصحراء.

صمت الرسول قليلاً ثم قال لحاروز في ثبات:
- سيدي.. إن سفراء قمبيز في طريقهم إلينا.. وقد عبروا بالفعل الشلال الثاني،
منتهزين وجود الفيضان ليستغلوا النيل في سرعة الوصول وهم الآن عند الشلال
الثالث.

- ماذا..؟ وما علمك بما هم قادمون من أجله.
- إنهم يحملون الهدايا إلى ملكنا، ولا تظن أن ذلك بشير خير، فعيوننا تتابع

حركاتهم إنهم يسجلون كل شيء في طريقهم، كان من الممكن أن يصلوا إلينا اليوم لكنهم يحسبون سمك الحصون، ويحصون الحاميات التي على الأسوار، وقد أصر وصولي إليك فضولي في معرفة غايتهم..

تجههم وجه «حاروز» وقال: صدقت، هذا نذير شر، والآن عليك إبلاغ أبي الملك بكل ما عندك..

- إن عيون الملك لم تغفل عنهم منذ ركبوا النيل إلينا.

شكر «حاروز» الرسول وأشار له بالانصراف.

فترك المجلس.. لكن بوادر القلق بدأت تسيطر على «حاروز» تحرك بلا وعي خارجاً من القاعة، وقف قريباً من القصر يراقب الممر المليء بالأشجار الواصل بين قريته وما يتبعها من قرى.. راح في تفكير عميق ولاحظت «داشيتا» ذلك فأسرعت نحوه.. لم يلحظها..!! كان غارقاً في أفكاره..

ربتت على كتفه فانتبه من شروده.. تبسمت له:

- ماذا بك..؟ أراك ذهبت في عالم غير عالمنا..

- شغلني حديث الرسول..

- إلى أي حد..؟

- يجب أن أذهب إلى أبي الملك فكل بلادنا أصبحت في خطر.

- ماذا تقصد..؟

- إنهم جواسيس والدور علينا.

- كيف..؟

أمسك «حاروز» بقطعة من الحجر الجيري ورسم على حائط قريب خريطة بدائية لوادي النيل ووضع علامة في اتجاه لوييا وبرقة ثم وضع خطاً فاصلاً في

الجنوب وقال:

- إذا نجح «قمبيز في تأمين مصر من الغرب فلا بد أن تكون بلادنا هي الخطوة القادمة فلا يأمن له ملكه، ولا يتم له فتح مصر إلا إذا فتح الواحات الخارجية وقد يتطلع إلى بلاد «بلاد كوش»، و«مروي».. وسيكون هذا هو طريقه لفتح أثيوبيا..

تركته وهي حائرة، حقاً إن الخطر قادم.. وهؤلاء الفرس كالجراد سيهلكون كل شيء في تلك البلاد الطيبة، لن يبقوا أخضرًا ولا يابسا، ولن يتوقف «قمبيز» عن الزحف حتى يحكم العالم.

صمتت «داشيتا» فترة، وأخذت تدور في ساحة القصر، وهي غارقة في أفكارها، وأخيراً لمعت عينها بفكرة جنونية فقالت وعلى وجهها نظرة تحدي مليئة بالسخرية:

- صدقت يجب أن نقابل الملك بسرعة.. لكي نُعجل بمجيء «قمبيز» إلينا.

- نعجل بمجيئه.. ماذا تقصدين..؟

- أولاً متى يصلون إلى قصر الملك..؟

- إنهم قد اقتربوا كثيراً ومن المتوقع أن يطلبوا لقاءه مساء الغد.

- حسناً لدي خطة مُذهلة، يجب أن نناقشها معاً وندرس جميع جوانبها قبل أن

نقوم بعرضها على الملك فهي لن تتم إلا بموافقتك وتدعيمه لنا..

- أخبريني إذاً ماذا وصل إليه هذا العقل الذي يزينه رأس جميل.

تجاهلت ملاطفته وقالت:

كما أتمنى أن أرى ماذا سيفعل الملك عند لقائه بسفراء «قمبيز» ولكن دون أن

يراني منهم أحد.

- حسناً هذا أمرٌ يسير ستجلسين في مكان يخفى عن عيونهم، وسأحدد مع أبي

. ما أبسط الحياة هنا، الناس تحيا في تكافل عجيب، لاشيء يعكر صفوهم سوى ما يخبئه القدر، من طموحات و أطماع غيرهم فيما لديهم.

حمل «حاروز» جرة من العسل ووضعها على المائدة وهو يقول:

. لقد علمني أبي الكثير من طرق المعاملة، والحكم رغم أنني أصغر أبنائه، وهو دائماً يقول عن كل غريب يأتينا.. إن كان ضيقاً فهو آمن، له عندنا أكثر مما نعطيه لأبنائنا، وإن كان ظامعاً، فليس في الأمم من يستطيع استخدام السهام والأقواس مثلنا.

مر الوقت سريعاً، كانت البهجة، تملو الوجوه.. حتى صارت المائدة الضخمة عامرة بكل أنواع الطعام والشراب، وحوها أوعية، وأجولة القمح، الكل جاد بما عنده، وانسحب الجميع بهدوء دون أن يأمرهم أحد بشيء، ذهبوا كما جاؤا، وتركوا المائدة أمام المعبد وحدها في الليل.. ليجتمع حولها الفقراء صباحاً عند أول ضوء للشمس، يأخذ كلٌ منهم حاجته منها، دون خلاف، أو شجار، أو تحكم من أحد..

أما «داشيتا» فقد تركت «حاروز» بعد أن ودعته ببسمة رائعة أشعلت ما تبقى من حبٍ في فؤاده، ودخلت إلى حجرتها وهي تعرف أن النوم ليس له سلطان عليها الآن ومع ذلك كان الجو هادئاً ونسمة الجنوب تهب دافئة.. ظلت طوال الليل ساهرة تسامر القمر الذي بسط ضوءه على الكون، وتصارع ضوءه مع الأضواء المنبعثة من الحوانيت والنوافذ، وقد نام أهل القصر، وهجعت البلدة، إلا من صوت كلب ينبح هنا أو هناك وحينها تسللت تحت الغطاء لم تستطع إلى النوم سبيلاً، كانت الأفكار تتلاحق في رأسها كالأمواج المتلاطمة، وخطتها تكتمل في رأسها شيئاً فشيئاً.. وبقيت طويلاً ساهرة مسهدة، ولما دب النوم في عينيها ألم بها يسيراً متقطعاً، كانت الكوابيس تتصارع فيه.. رأت كل من رحلوا يتعلقون بها، يطالبونها بدمائهم التي كانت تسبح فيها بلا طوق نجاة.. ولما رآته وجدت الخلاص في عنقه، ولم تكن تملك إلا أظافرها.. فنشبت أظافرها في عنق «قمبيز».

obeyikan.com

ملك بلاد كوش



أشرفت شمس يوم جديد على قصر الحكم في بلاد كوش، فأضاءت بستانه الرائع الذي تحيطه الأشجار العالية من جانبيه، وكان القصر متعدد الحجرات، تزين جدرانها نقوش اختلطت ما بين النقوش الفرعونية والأشكال البسيطة البدائية، زاهية الألوان وكثرت به التماثيل الصغيرة التي تزين الأعمدة الحجرية الطويلة.

وقف عند الأبواب، ويجوار الأعمدة، وحول كرسي الملك بعض الحرس الأقوياء يحملون الرماح، والأقواس، وتلمع على ظهورهم كناناتهم المكتظة بالأسهم الدقيقة الصنع، بينما غاصت قاعة العرش بالناس، من قبائل نوبية مختلفة، تتراوح وجوههم بين السمرة اللامعة، واللون الأسود الفاحم، بعضهم يرتدي الملابس البيضاء الفضفاضة، وآخرون يرتدون ملابس زاهية الألوان، وجوههم صافية، ويضحكون بصوت مرتفع تلمع معه أسنانهم البيضاء، والصفراء القوية المكتملة.. وقد فرشت لهم أبسطة يجلسون عليها ووضع فوقها وسائد ومتكئات كثيرة وجميلة الشكل، ومطرزة بخيوط الذهب، بينما كثرت حولهم أطباق الفاكهة، والشراب. وبالقرب من العرش كان يجلس كاتب الملك، ومدون رسائله أمام مائدة خشبية وهو متكئ بذراعه على بعض أوراق البردي، يكتب رسالة و يأخذ الحبر من محبرة مصنوعة من الأبنوس بواسطة قلم

بسيط من البوص.

عند دخول الملك « نستاسن » إلى القاعة هدأت الأصوات، وترجل القوم، لكنه أشار إليهم مبتسماً ليستمروا، في أكلهم ومسامراتهم، وتقدم نحو عرشه، حتى إذا استوى عليه ناقش أحد كبار قادته في بعض الأمور ثم نادى على حاجبه وسمح له بأن يُدخل سفراء ملك فارس..

تقدم السفراء، وهم يحملون الهدايا المصرية الصنع وبعض النسيج والجواهر من بلاد فارس، لكنهم تعجبوا لما وجدوه من بساطة القوم، وجلو سهم في حضرة ملكهم، فزاد يقينهم بأن مهمتهم قد نجحت، وسيحملون إلى ملك الفرس الكثير من البشائر، عن بساطة الشعب وسهولة هزيمته.

وعلى الفور انحنوا بين يديه وقدموا له الهدايا قائلين:

- أيها الملك المعظم ملك بلاد كوش إن «قمبيز» ملك الفرس أراد أن يكون بينك وبينه مودة وإخاء.. فأرسلنا إليك بهذه الهدايا السارة، وقد وجدنا، من كرمكم الكثير، حتى إننا لنطمع في أن نبقي في ضيافتكم أياماً نتعرف فيها على حضارتكم.

كانت «داشيتا» تراقب من مجلسها البعيد عن عيونهم ما يحدث، وقلبيها يتقافز فرعاً، وهي تخشى أن يستطيعوا خداع الملك، لكن حاروز الذي كان ما يزال قريباً منها، قال لها:

- اطمئني فكل التقارير قد وصلت إلى الملك، وهو يعرف الآن لماذا جاءوا وهو قادر على وقف طموحهم.

نظر إليهم « الملك نستاسن » ملك النوبة متعجباً وكأنه يراقب ما في نفوسهم، ويرى ما تنطوي عليه أفئدتهم من خداع، وقال وهو يرفع ذراعه القوي مشيراً نحوهم: ليس حب المحالفة هو الذي حمل ملك الفرس على إرسالكم إلى هذه

الهدايا، ولا أنتم تقولون الحق، ولا ما تقولونه عن أنفسكم وعن قوتكم، وعن عدل ملككم، صحيحًا ولو كان ملككم مستقيمًا عادلا لما طمع في أرض ليست ملكه ولا فكر أن يستعبد أناسًا لم يسيئوا إليه أو يخطئوا في حقه..

ولكنه إنما طمع في بلادى، وأرسلكم لتتجسسوا، وتعرفوا أخبارها..

صمت الملك للحظة وهو يراقب أثر كلماته في عيون رسل «قمبيز» ولما شعر بأنهم مازالوا يحتفظون بشيء من غطرستهم، قرر أن يعطيهم درسًا، فأخذ قوسًا ضخمًا ووتره أمامهم بقوة، ودقة أذهلتهم، ثم حله في لحظات ودفع به لجواسيس قمبيز وهو يقول لهم:

- خذوا هذه القوس إلى ملككم وقولوا له أن ملك كوش، ومروري بل ملك الأثيوبيين جميعًا الذي يستطيع أن يستتفر منهم مأتي ألف بإشارة من يمينه ينصحه بأن لا يأتي لحربنا إلا بعد أن يصبح جنوده قادرين على وتر هذا القوس بتلك القوة، وليتذكر ساعتها أن يأتيني بجيوش أعظم عددا من جيوشكم..

شعر الرُّسل بالفرع يدب في قلوبهم، لكن كلماته الأخيرة ملأتهم رعبًا حين رفع صوته جهوريًا وهو يقول:

- وليقدم «قمبيز» الشكر لآلهته على أنه لم يضع في قلوب الإثيوبيين الطمع في بلاد لا يملكونها وإلا لوجدنا عنده في فارس منذ زمان بعيد.

أشار الملك إلى بعض رجاله، ليصحبوا الرُّسل إلى خارج قصره، وهو يقول:
- أما الهدايا فلا نقبلها إلا من نفوسٍ صافية، وهذا ما لم نجده في سلوككم في بلادنا، فخذوها وانصرفوا.

حمل السفراء هداياهم، وهم في فرحٍ شديد.. وخرجوا من القصر وهم صاغرون.

وقفت «دايشيتا» متعجبة وهي ترى ما حدث بعينها وما سمعته بأذنيها، ولكن

انبهارها غطى دهشتها، إنه حقًا ملك عظيم، إن رأيت بساطته، لم تدرك حجم قوته ..

أقرب «حاروز» من أبيه الملك «نستاسن» وبعد أن أدى التحية، وقَّبل الأرض تحت قدميه قال له:

- لقد علمت يا أبت هؤلاء الجواسيس درسًا لن ينسوه، ولكنك بذلك أشعلت غضب «قمبيز» وغروره و ما أظنه إلا قادمًا بجيشه عن قريب.
استطرد الملك قائلاً:

الغاضب لا يُحسن الاستعداد يا بني، كما أن الفيضان سيتوقف عما قريب، ويصبح وصوله إلينا بجيشه عسيرًا عبر الشلالات الخمس.. ولن يكون أمامه إلا الصحراء والواحات، وأيامًا طويلة ليأتي إلينا.
- يالك من حكيم يا أبي.

- يا بني إننا لم نكن يومًا قساة نطمع فيما يملكه غيرنا، ولكن إذا أعتدي علينا فنحن الأسود في عريننا.. وقد كان أجدادنا من ملوك النوبة إذا تمكنوا من أعدائهم عفوا عنهم، فإن قوتنا لا نسخرها إلا في الدفاع عن بلادنا وكل الحروب التي خضناها كانت فقط لصد الجيوش الغازية لأرضنا.

- نعم يا أبي لقد سمعت أن جدك ملكنا العظيم «بعانخي» الذي حكم الشمال والجنوب، وساد النيل كان يوصي جنوده قبل كل معركة قائلاً: «إذا سلم لكم أحد الرؤساء فلا تقتلوه لأن ذلك أمر مذموم».

لاحت على وجه الملك ابتسامة، وهو يتذكر أجداد الفراعنة السود الذين حكموا الشمال والجنوب وأسسوا في مصر الأسرة الخامسة والعشرين وقال:

- إن ملك نبتة «بعانخي» العظيم لم يكن يهاب مواجهة عدوه ولا يعرف الغدر، فقد قال يوصي جنده قبل المعركة قائلاً: «لا تهاجموه ليلاً هجوم المخادعين

بل هاجمته متى رأيتم أنه أعد جيوشه وخيوله وسار إلى قتالكم»، وقد كُتب في حجر نبتة الذي سجل عليه أمجاده «أن الملك النبتي «بعانخي» عندما وصل بجيشه إلى مدينة منف المصرية خاطب أهلها: «لا تقفلوا أبوابكم دوني ولا تحاربوني فأنتي سأدخل مدينتكم وأخرج منها ولا أسئ إلى أحد..»، وكان كلما مر بمدينة وقد أقفلت أبوابها يدعوها للتسليم فتسلم فيدخلها ولا يقتل من أهلها أحداً».

تذكر «حاروز» ما جاء من أجله، وقال للملك:

- إن «داشيتا» ابنة كاهننا الأعظم «بانيحور» جاءت تعرض عليك أمراً، سيفيدنا في حربهم، ويحرق الكثير من الدماء..

لاحت على وجه الملك علامات الحزن وتذكر الكاهن «بانيحور» الذي كان صديقه وما حدث له هو وابنه.. وقال:

- إنها عظيمة ابنة عظيم، وإن كانت قد فقدت أهلها جميعاً إلا أنها ربحتهم أيضاً جميعاً فالأبطال الشرفاء يبقون وساماً على صدور أبنائهم.. ثم أشار لداشيتا بالاقتراب..



obeyikan.com

الاتفاق



في مجلسه شعر « قمبيز » بموجة من الغضب تجتاحه، أخذ يدور في القاعة مفكرًا.. بينما وقف أمامه «وزاحررسن» مطمئنًا وهو يداعب بطرف خنجره رأس الوزير «ميجا» المقطوع والذي جاء به أحد أفراد الجيش فوق درع فضية، نظر إليه وعلى وجهه ابتسامة الرضا فهاهو قد استراح أخيرًا من عدو كان يتهدهده.. كما جاء هذا الجندي بالكثير من الأخبار السارة.. أخبار الانتصارات.. فهذا الجيش الذي هدم معبد آمون، وقتل الكاهن اللعين قد استطاع أيضًا أن يُخضع «لوبيا» كلها وبرقة « لسلطانه، وهاهو جيشه مستمر في تأمين حدوده وفتح البلاد..

راقب «قمبيز» الرأس المقطوع بضيق.. همس لنفسه:

- الخيانة حولي في كل مكان..

ثم التفت نحو «وزاحررسن» وقال لكي يُطفيء فرحته:

- ارفع خنجرك عنه، فقد يُصبح غدًا رأسك مكانه..

تجمدت أطراف «وزاحررسن» من الرعب للحظات، ووضع يده على عنقه في فزع.. فتبسم «قمبيز» وهو يُكمل كلامه:

- لقد أصبحت أرى هذا المصير كثيرًا فاحرص على طاعتي

لكي لا تصل إليه.

- ادفنوا هذا الرأس، وأرسلوا من يُحضر لي المزيد من أخبار الفتح، فلم يعد يسرني شيء سوى أن أكون سيدًا لهذا العالم.

«نتيتس» لا تعرف الراحة، فلم تكن تحلم بما ادخره لها القدر، إنها امرأة خلقت للعرش.. فها هي توطد مُلك آباءها من جديد، وتصنع التماثيل لهم، تأمر الكتبة بتدوين ما قاموا به من انتصارات، تُسجل تاريخهم ومعاركهم.. تعيد كتابة إنجازاتهم في البرديات وعلى قبورهم بعد أن محاها «أماسيس» الغادر و سجل الكثير منها على اللوحات الجدارية الضخمة بأنها إنجازاته هو.. تشتري الجند و الكثير من العبيد، وتدرهم على حمايتها..!! تتعامل مع مصر كأنها لها وحدها.. نسيت أن «قمبيز» هو الفاتح الأعظم، والمُلك الحقيقي لهذه البلاد.. لم تعد تستشير في شيء، تتحرك في كل مكان وتعيد البناء بسرعة و قوة الذهب الذي تملكه.. أما هو فهي تعرف أن صبره قد نفذ و لا شيء بعد اليوم يمكن أن يرغمه على تحمل طموحاتها.. لذلك بدأت تتحرك بخطوات سريعة، فهي تُدرك بفطرتها الخطر القادم وهي تراه وقد ازدادت عليه نوبات الصرع، حتى لم تعد سراً يُخفي، في قصرٍ تفتحت جدرانه أفواهاً..!!

وبعد هدمه لمعبد آمون زاد حقد وكره شعبها له، بل هي نفسها لم تعد تراه إلا متكبراً في طريقه إلى نهايته، قلبها بركان تتقلب به الحمم، لم تعد تدرٍ وهي ترى من نظراته الخالية من العاطفة نحوها، كم تبق من حبه في قلبها، وكلما رأته في ضعفه ومرضه أسرعت بلا وعي نحوه حتى تفوز باحتوائه فيكون ملجأه أحضانها.. إنها تحبه بكل كيائها فهو وحيدها وثمره عمرها، ربه على أن يكون أقوى الرجال، و أحكمهم، و أكثرهم توحدا معها، فهابها اليوم لا تجده قريباً منها إلا في ضعفه.. تمت أن تُهزم جيوشه، و تنجح الثورات ضده في فارس، فلا يجد مكان له إلا مصر حيث يكون سلطانها هي قد امتد، فيحيا في حمايتها بدلاً من أن تنتظر أن يُطيح بها في غضبة من غضباته.. وبدأت تداعبها أحلامها، تذكرت «توزوي» نهدت :

- آه لو كان حياً لأجلسته بجواري على هذا العرش، فهو قائد عظيم ومحبوب المصريين، و محبوبي الذي فقدته مرتين.

في كل مكان تسير فيه، ومع كل خطوة تخطوها، كانت هناك عين من عيون «وزا حرسن» تتبعها، وتسجل التقارير، بينما في كل ليلة كانت خطة من خطتها لقتله تفشل، فهو يُنفق على حرسه أكثر مما يُنفق على بيته وملذاته، إنه نموذج للرجل الموغل في صبره المتحمل لكل شيء والذي لا يقنع بشيء، أما هي فتتقن كل فنون الدهاء، وتحسب كل خطوة تخطوها، وتعرف متى تكون أما ضعيفة، ومتى تُصبح ملكة عنيفة.



اختفاء جيش «قمبيز»



مرت الأيام وطال الانتظار، ولم تعد رسائل الفتوحات تصل إليه.. ران الصمت على كل شيء، وأخيراً أرسل من يستقصي الأمر.. وكانت المفاجأة..؟

عاد الجنود يحملون الجندي الجريح الوحيد الذي نجى..
هتف بلا وعي:

- ماذا تقول..؟! هل يمكن أن يختفي من علي وجه الأرض جيش كامل قوامه خمسون ألفاً من المقاتلين الأشداء بتلعمهم رمال الصحراء..!! هل جنت كيف تريدني أن أصدق هذا..

أحنى الجندي الجريح «دياكوس» رأسه وهو يقول:

- ولكنها الحقيقة يا سيدي.. لقد اختفى الجيش بعد أن حقق أحلامه في الفتح وتأمين البلاد..!!

- كيف؟ أخبرني بسرعة كيف حدث هذا؟

كنا نجلس للراحة لساعة الغذاء، وكان بعضنا يستظل بجوار هرم حجري ضخم، قريباً من منطقة تسمى بحر الرمال الأعظم.. نظرنا جنوب الوادي في فزع عندما شعرنا بظلمة عظيمة تجتاح السماء خلفنا، وفجأة هبت علينا ريح عاصفة، تاركة خلفها صرخة عارمة، اجتاح الدهول الجميع، وفي لحظات تزايد الاضطراب،

وعلت الصرخات، وأسرعت الحمير والخيول في الهرب، وهي تجر جر أحمالها، كانت مجرد لحظات خاطفة، غطانا بعدها المجهول لم يكن هناك وقت للفرار، لم يكن باستطاعتنا حتى التنفس بعد أن امتلأت أفواهنا وعيوننا بالرمال، واختفت صرخات الجند وسط زئير الريح.. لم ينج أحد ياسيدي.. لم ينج أحد.

كان العرق يتصبب من كل جزء في جسم الجندي «ديماكوس» الذي ظل يعاني شهرًا كاملاً من هيسثيريا وفرع فقد وجده بدو الصحراء بعد أيام من العاصفة وهو مازال يتنفس وقد غطت الرمال أغلب جسده.. أكمل حديثه في رعب وهو يرى «قمبيز» الجامد في مكانه كأنها أصابته صاعقة:

- مولاي إنها العواصف الرملية المهولة في الصحراء الغربية.. العواصف التي تأتي من المجهول، وتحصد كل شيء في طريقها.. العواصف التي لا تستطيع أن تفعل شيئاً عندما تراها سوى أن تموت.

خرج الجندي «ديماكوس» من عند قمبيز، وهو يحمل على صدره بعض الأوسمة؛ لأنه الناجي الوحيد في معركة فاصلة، معركة فاصلة بين الحياة والموت.. أما «قمبيز» الذي نزل عليه الخبر نزول الصاعقة، كاد عقله أن ينفجر كيف يمكنه تصديق ما حدث.. بكل بساطة يفقد جيشاً عظيماً كهذا.. لكنه تحدي الطبيعة برمائها المتحركة وعواصفها الهوجاء.. أخذ يدور في القاعة الملكية وسط فنائها المحاط بالأعمدة المطلية بالألوان والرسوم الفرعونية التي تحكي الأجداد..

أفاق من ذهوله على الجلبة التي أحدثها دخول الملكة «نتيس» إلى القاعة..

قال وقد شعر بطعم المرارة في حلقه:

- «إذاً فقد انتقل خبر الجيش المفقود، انتقل في طرقات منفي وطيبة كما ينتقل الهواء العاصف الملوث بالغبار».. وهاهي عزيمة قومها جاءت لتدلي بما لديها من أحقاد..

جلس على أقرب كرسي واستعد لمواجهةها..

دخلت منتفخة ومنتشية زاهية الألوان كطاووس اكتسب المزيد من الريش.. وعيناها تبحشان عنه وتتجهان نحو كرسي العرش.. وجدته قريباً منها في بهو الأعمدة... اصطنعت على الفور الحزن، وكست وجهها بدموع مزيفة.. ارتمت عليه صارخة صاحت بدهشة مصطنعة:

- ماذا حدث يا بني.. أي غضب قد أصاب جيوشك.. أي روح خفية قد أخذتهم معها إلى الأعماق..

علت الحمرة وجه «قمبيز مثل نيران الحريق، وقد ثارت كل الدماء التي في عروقه دفعها بيده بعيداً عنه كعادته، وقال بصوت مخنوق:

- جئت نادبة مواسية أم متشفية..؟

- متشفية..!! لماذا.. أنت ابني ونصرك نصري وهزيمتك تقصم ظهري.

- كنت أعتقد هذا قبل أن نصل إلى هذا البلد.. فلتكوني واضحة معي فقد سئمت من الأعيب أعرف آخرها.

جلست «نتيتس على كرسي وثير من الخيزران بعد أن أحكمت على قاعدته الوسائد الحريرية الممتلئة بريش النعام.. تحدثت ببرود:

- أما آن الأوان أن تكفر عن خطئك الأعظم؟

- خطئي الأعظم،.. خطئي الأعظم أنتِ أعرف الناس به.

- لم أقصد هذا، وإنما قصدت هدمك لمعبد الإله آمون، وقتلك لكهنته..

- وما علاقة هذا بما أنا فيه الآن.

- إنها لعنته تلاحقك و إذا لم تقم على الفور ببناء معبده والتقرب إلى كهنته فأنا

لا آمن العواقب..

قام «قمبيز» من مكانه، متجهاً إليها، ونظر في عينيها بقوة وتحدٍ قائلاً:

- هل تظنين أنني أخشى تماثلك العتيق وكهنته الملاعين، إنهم لا شيء، لو كان إلهاً لأنقذ معبده الذي أصبح كومة من التراب، وقد أدى الجيش بعدها دوره في تأمين البلاد، وما أهلكه هو العواصف ورمال الصحراء.

ارتفع صوت نيتيتس مدافعة عن أمتها:

- أية عواصف وأية رمال إنها لعنة آمون قد لحقت بك، فلا يأخذك الغرور فلکم أسقطت قطرات المطر من صروح شامخات..!!

نظر «قمبيز» من شرفة القصر وهو يُشبح لها بيديه ويشير إلى تلك الاحتفالات التي تملأ المدينة، أضواء المشاعل التي تحيط بيوت الفلاحين على ضفاف النيل وقال غاضباً:

- انظري إلى قومك إنهم فرحون يحتفلون بفقدي لجزء هام من جيشتي، يعتقدون أن في ذلك هزيمة لي، سأريهم الآن ماذا يفعل الأسد الجريح.

انتفضت «نتيتس» في رعب وخفق قلبها بعنف وهي تتعلق به:

- لا انتظر.. هذه الاحتفالات لا علاقة لها بك فهم لا يعرفون شيئاً عنك ولا عن جيشك المفقود، إنهم البسطاء، يحتفلون بروح الإله التي حلت في العجل «أبيس» الذي ولد منذ أيام، فصار رمزاً للخصب والنماء..

- البسطاء.. الخاضعون للتقاليد القديمة الفاسدة، مازالوا يخافون ما صنعوه بأيديهم من تماثيل ورموز وما عبده من حيوانات، لا تعرف غير الرعي والكلأ، رغم ما فتحت به عقولهم من أضواء الحضارة.

- أحذرك من التعدي على عقائد قومي..

لم يستمع إليها، دفعها بعيداً عنه، واستل خنجره وهو يصفع الباب خلفه..

انطلقت العجلة الحربية وعليها «قمبيز» وخلفه مجموعة كبيرة من القادة.. وفي دقائق كان يقرب من احتفالات الفلاحين..

كانت البيوت المبنية من الطوب اللبن والتي تحيط جانبي النهر، قد علت فوقها المشاعل فأصبح الليل نهارًا، واجتمع الكهنة والبسطاء من الفلاحين والعمال والصُّناع يحتفلون حول الأضواء، وقد وضعوا العجل «أبيس» على محفة ضخمة، وزينوه بالزينات، ووضعوا حوله القرايين، وارتفعت أصوات الطبول والدفوف، وترنمت المزامير، وفاحت روائح البخور، فملأت الأنوف.. واشتعل المكان برقصات الشباب، وأغانيتهم و ترانيمهم التي كانوا يُنشدونها خلف الكهنة.

اقتحم «قمبيز» بعربته الحربية وجنده الاحتفال، فدب الفرع في القلوب، وفرقت العربية الجمع، والتف الكهنة حول العجل «أبيس» ليحمونه بأجسادهم عند رؤيتهم لنيران الغضب التي ظهرت على وجه «قمبيز» وهو يتجه بعربته نحوه.. وفي لحظات معدودة كان يدفعهم من حول العجل وخلفه جنودهم يذيقونهم الموت بصليل سيوفهم.. وهجم «قمبيز» بخنجره على العجل «أبيس» وضربه عدة ضربات قاتلة. انطفأ بعدها غضبه، وانطفأت معه فرحة البسطاء، وتدفقت دماء «أبيس» مختلطة بمياه النيل.



obeyikan.com

البركان الخامد



مرت أيام عصيبة، على قصر الحكم لم تعد تهتم «نيتيتس» الأم بأن ترى ولو شبح حنان نحوها يومض في عيني «قمبيز» كما كان عهدنا السابق معه، حتى أوقاته التي كان يصاب بالصرع فيها تعمدت ألا تكون بجانبه حاولت أن تتجاهله كما يتجاهلها بينما أسرعت وبكل قوتها في إتمام ما بدأته من تأمين ملكها وزيادة سطوتها، وشعرت أخيراً أن الأرض صلبة تحت قدميها بعد طول تشرذ وضياح، ولكن ما كان يقلقها هو أن غضبه وثورته تحولاً فجأة إلى هدوء وتخطيط، إلى عالم حرص ألا تكون هي فيه.. وطموحاته نحو الفتح وتوسيع البلاد صارت بلا حدود، واشتعلت نيرانه بعد عودة سفرائه وجواسيسه من بلاد كوش وقد زودوه بكثير من المعلومات عن حضارة النوبيين وبأسهم، وقصوا عليه كل ما رأوه وسمعوه من ملكهم، فغضب غضباً شديداً من تحدى ملك كوش وسخريته، وأمسك بالقوس الذي أرسله له هازئاً وهو يضحك في سخرية:

- قوس ووتر، حسناً هل هذا هو كل ما يحسن العجوز وقومه..

ألم يُعلمه أحد من هو «قمبيز»؟؟ وكيف تندفع جحافل الجراراة حاملة للموت، وواثقة من الفتح.. ألم يخبره أحد أن قوة الانطلاق مرهونة دائماً بالزمان وبالمقدرة.. حسناً لقد آن الأوان أن يتعلم شيئاً جديداً، وأن يدفع ثمن جهله.

لكن المعلم «كنترياس» لم يغفل لما وراء رسالة ملك كوش من تهديد حقيقي، بل أمسك بالقوس والوتر وتأملهما طويلاً ثم التفت إلى «قمبيز» بابتسامته الهادئة قائلاً:
- ياله من قوس.. لو وضع مثله في يد ألف جندي يحسنون استعماله فكم من الخسائر سنفقد إن أطعنا غرورنا..

أنظفاً غضب «قمبيز» لوهلة وعلت وجهه الدهشة ونظر نحو معلمه الذي أكمل حديثه في صرامة عرفها فيه منذ صغره في لحظات الشدة قال:
- لا تستهن بالعجوز، ولا تغرك بساطته، ولا بدائية قومه فأرضه وعرة تحيطها صحراء قاسية من جهة، ونهر عظيم من جهة أخرى لا تستطيع اختراقه إلا بعد عام حين يأتي الفيضان فيقل خطر شلالاته الخمس على سفننا.. كما أن رجاله البسطاء كوتهم الشمس و جففت عودهم، ولا يرون غيره ملكاً يؤمنون به ويقدمون رقابهم فدائه.
داعب «قمبيز» لحيته وقال:

- كل هذا لا يعطيه القوة ليتجراً على السخرية مني فإن كان عنده هؤلاء فعندي من جحافل الجند ما لا يطيق.

- لم أقصد أن أقلل من عظمة ملكك وشجاعة جنك يا بني ولكنني أردت أن أنبهك إلى دقة صنع هذا القوس قوس صنعته يد من حديد، وعلى جنك أن يأخذوا بنصيحة العجوز ويخشوشنوا ولا يركنوا إلى ما أمدتهم مصر من رفاهية فأمامهم حرب عاتية ورماح كالأمطار و جند ابن قوش ليسوا أقل من أن يكونوا رعد السماء وصواعقها على أعدائه.

تبسم وقد أدرك ما يعنيه معلمه وعلى الفور أرسل إلى «رامون» أحد كبار قادة جيشه وأشر سهم ليقسوا عليهم في التدريب، فأعلن «رامون» أنهم أشد الجنود وأنهم جاهزون في أي لحظة لقتال طويل.. فأعطاه العود والوتر وطلب من أن يصنع قوساً ويوتره أمامه.. وحينما عجز «رامون» الشرس تعلم «قمبيز» ألا يستهين بكلمات الملك العجوز.. وأمره على الفور أن يحضر لجنده بعضاً من الإثيوبيين الأشداء ليعلموهم صناعة الأقواس والرماح، وفن الرماية بهم.

الوفد القادم من الجنوب



امتدت أشعة الشمس الدافئة إلى أحضان أرض «منفيس» الطيبة، وتراقصت نباتات البردي على صفحة النيل هناك بالقرب من القصر الكبير.. بينما اتكأ «قمبيز» على أريكة ناعمة وهو يراقب من شرفة قريبة السماء الصافية والنخيل المرتفع المثقل بالبلح الأحمر.. إنها المرة الأولى التي يُطيل فيها زمن البقاء والاستقرار، ويتوقف فيها عن الاندفاع في فتح البلدان، وكأن تلك الأرض تدعو من فيها إلى الاستقرار، والثبات، وتشعره بالأمان.. لكن هيهات فما زال العالم واسعاً فسيحاً، وطموح الملوك بلا حدود..

أفاق من شروده على اقتراب حارسه طالباً السماح لوفد من النوبيين بدخول القصر والمثول بين يديه..

أشار له «قمبيز» بالموافقة، وقام معتدلاً واتجه نحو قاعة العرش.

تقدم الوفد النوبي من باب القصر الكبير يحملون الهدايا الفاخرة وصناديق الثمار وجلود النمر، وقطع العاج المزينة بالنقوش المنحوتة عليها، ففتحت لهم الأبواب، وأفسح لهم الحرس المجال فدخلوا في خطى واثقة حتى وصلوا إلى قاعة العرش حيث جلس «قمبيز» وعلى رأسه تاجه في شموخ، فأحنوا له الظهر، وقبلوا الأرض تحت أقدامه، فأشار لهم بالوقوف، وأن يتقدم كبيرهم، فتقدم أحدهم، وكان شيخاً بديناً قد زاد بياض شعره

من جلد نمر، ووضعت على صدرها القلائد العاجية وقلائد الذهب التي تتدلى منها حبات العقيق الأحمر..

رفع «قمبيز» بصره نحوها مشدوهاً.. للوهلة الأولى سقط أسيراً في عالم عينيها الساحرتين، كان بريقها يجذبه كلما تقدمت..

ران الصمت للحظات.. انتظرت الإذن بالحديث، لكنه كان مثبتاً نظره نحوها وقد نسي من حوله..

راقب «وزحار رسن» ما يحدث بقلبي شديد، كان يجلس في نهاية القاعة، حاول الاقتراب لكنه خشي أن يرى «قمبيز» فضوله.. أثاره أيضاً جمالها ولكن بطريقة أخرى..

تنبه «ملك الفرس» أخيراً وخطي أن تهتز هيئته، فأشار لها بالحديث.

تقدمت خطوات ورفعت رأسها نحوه كانت تلك المرة الأولى التي أطلت فيها على ملامحه.. على قسماط وجهه، ففي كل مرة كانت تحاول قتله من مسافة بعيدة جداً لكنه الآن أمامها.. لا يفصلها عنه سوى خطوات قليلة.. شعرت بالهيبة، فلم ترى رجلاً تتجلى كل معالم الرجولة على وجهه مثله، وخيل إليها للحظات وهي تذوب في تلك الهيبة، كأنها الدنيا بأسرها خلقت لخدمته..!! تماسكت وأحنت رأسها لتحيته ثم بدأت تعرض فكرتها:

- أنا هي «داشيتا» الساحرة الطيبة الكاهنة التي حدثك عنها هذا الرجل أيها الملك المعظم الشجاع «قمبيز» وقد جئت أعرض عليك عرضاً ما أردت به إلا الحفاظ على بني قومي من الهلاك، وجعلهم في طاعتك.

- وما عرضك إذا..؟

- لقد علمنا بما فعله ملك كوش، مع سفرائك، ووصلنا ما عزمتم عليه من استنفار جيشك، لمحاربتة، وإدخال بلاده في مملكتك التي بلا حدود، ومما لا يخفى

على مولاي أن الطريق إلى بلاد كوش، ومن بعدها إثيوبيا وكل الجنوب، طريق وعر، وخصوصًا إذا أبحرت في النيل لما به من شلالات، وأخطار.. كما أن الفيضان قد انتهى وعادت للطريق وعورته، فأصبح لا طريق لجيشك غير سيوة والواحات الواقعة على الحدود.

هز قمبيز رأسه، وقد رأى من ذكاء عقلها ما شغله قليلاً عن جمال عينيها فقال:
- ثم ماذا..؟

- وهذه يا مولاي هي بلادنا، و مواقع قبائلنا، وفي مقدم جيشك إلينا هلاكنا، وهلاك أهلينا لذلك فقد أقنعنا زعماءنا بأن يقدموا لك فروض الطاعة والخضوع، ويسلموا لك، فتدخلها بلا حرب، على ألا تجبرهم على قتال قومهم معك، وسوف يسالمونك حتى تنتهي حربك، مع ملك كوش.

داعب «قمبيز» لحيته مفكرًا وقد أعجبه منطقها كما بهره جمالها، وإن كان أضمر شيء في نفسه لخيانتها هي وقومها لملك كوش الذي يحكمهم.. ثم قال:
- وماذا تريدون لقاء ذلك؟

صمتت لحظة ثم نظرت في عيني «قمبيز» مباشرةً وعلى وجهها ابتسامة ثقة
قائلة:

- الأمان لأقوامنا يا مولاي، فنحن نحب العيش في طمأنينة وسلام، ولا نطمع سوى في أن نجنب قبائلنا ويلات الحروب ولن يتحقق لهم ذلك إلا بالخضوع والإذعان لسلطانك والطاعة لإرادتك، فمن لا يرى عظمة فتوحاتك فهو أعمى بالتأكيد يا سيدي..

سرت موجة من الرضا في قلبه عند سماعه لهذا الشئ الرقيق، وطغى عليه الإحساس بالفخر وابتسم لها، وهو مازال معلقًا بصره بعينيها قائلاً:
- حسنًا سأفكر في الأمر، وغداً في مثل هذه الساعة سيصلكم جوابي..

ثم التفت إلى حاجة قائلاً:

- أنزلوهم في بيت الضيافة وأحضروهم لي في الغد..

مر الوفد النبوي بهدوء عبر طرقات الحديقة حتى وصلوا إلى بيت كبير أنيق الشكل ملتصق بسور القصر جهزه الحرس لإقامتهم..

تبسم «بويا» قائلاً:

- ليت «حاروز» معنا.. لماذا تركته عند الشط يحرس زوارقنا..؟

أحنت «داشيتا» رأسها حزناً وهي تقول:

- هذا خير له.. أنسيت أنه كان أسيراً هنا من قبل، وربما تعرف عليه أحد الجنود.. إن أخشى ما أخشاه الآن هو أن يتخلى عن حذره ويأتي بدافع من فضوله وخوفه علينا.

ضحك «بويا»:

- ذلك جنون عهده فيه.

- ليس جنوناً يا عماه.. إنها أشياء أخرى أكثر عمقاً من ذلك فأنا لم أر في كل أنحاء البلاد رجلاً مثله، يجمع بين الشباب والقوة والجرأة والقلب الطيب.

- لو سمع ما سمعت الآن لما نام ليلته.. يبدو أن الفتى الطيب قد وجد له مكاناً في قلبك.. كم تمنيت أن أحدث الأم «بيرما» الآن.

أحمر وجهها خجلاً وأسرعت تخرج إلى الحديقة وهي تقول:

- آه منك أيها العجوز الطيب، يبدو أنك تنصت إلى «بيرما» كثيراً، ويؤثر فيك خبزها الساخن.

جذبها «بويا» بلطف قائلاً:

- إلى أين يابتي..؟

- لا تقلق.. لكنه بعض الشوق لموطني فهذا القصر كان قصر خالي يوماً ما،
وهذه الحديقة الواسعة كانت أول مكان أخطو فيه وأرى العالم.

- لكن لا نريد أن يشك الحرس بشيء.

- الحراس يقفون فقط عند الباب الأمامي، ورائحة أشجار الليمون والارنج
تجذبني إلى ذكريات دافئة.

- حسناً كما تشائين، أما أنا فهناك طعام شهى بالداخل له جاذبية بلا حدود.

سارت «داشيتا» في الحديقة بينما دخل بقية الوفد إلى بيت الضيافة وهدأت
النفوس فقد مر كل شيء بدقة وحرص..

لكن لم يخل الأمر من عين تتبعهم وقد ساورها الشك..



المواجهة



في بيته الكبير على ضفاف النيل ورغم ظلام الليل وبرودة الجو الدافعة إلى النوم والسكون، إلا أن عقله المزدهم بالأفكار والدسائس لم يستطع أن يخضع لجفونه المثقلة.. تقلب كثيرًا على فراشه، لكنه قام أخيرًا وقد بدأت الصور والأحداث الماضية تلتحم في ذاكرته .. هرش «وزاحرسن» في رأسه الأصلع مفكرًا:..

- وقد نوبي جاء يُلطف من ويلات الحرب، ويعرض خطة ليأمن الجنوب هلاكًا محققًا على يد ملك الفرس.. جائز.. أما هذه الكاهنة ابنة الكاهن الساحرة أخت الساحر، والطيبية، التي كان زوجها طيب، فرغم ما كست به نفسها من هيبة، فإن جمالها يفضحها رغم سمرتها، إنه جمال لم نعهده في بلاد كوش.. فلا يملك هذا الجمال النادر سوى بنات أحمس «أماسيس».

أخذ «وزحارسن» يلف ويدور في حجرته مفكرًا يتقلب على حجر المؤامرة.. هتف أخيرًا بلا وعي:

- «بانيجور» لا يوجد غيره إنه هو «بانيجور» ذلك الكاهن الذي أرسله الفرعون أحمس «أماسيس» منذ قرابة العشرين عامًا ليعلم الكوشيين ديانتنا.. وزوجه أخته «تي نفرو».. فأنجبت له ولدًا عمل ساحرًا في قصر الفرعون، وفتاة زوجها طيبًا في الجيش.. إنها على حق «ابنة كاهن، وأخت ساحر، وزوجة طيب..

إنها «داشيتا» ابنة عممة الفرعون «أبسمايك الثالث».. ياله من صيد ثمين.

قرر «وزحاررسن» على الفور إبلاغ «قمبيز» وخرج متجهًا نحو قصره غير مبالٍ بتلك الساعة من الليل، حتى أنه لأول مرة يتخلى عن حذره ويتحرك من بيته بلا حراس وهو يمني نفسه أن يكون كشفه لتلك الخطة هو الإثبات الحقيقي لإخلاصه لملك الفرس، وبذلك يُعجل من اعتلائه لكرسي الحكم في مدينة «سايس» ذلك الذي صار أهم أمنياته، بعد أن مناه به «قمبيز» وأخر حصوله عليه اكتشاف الملكة «نيتيس» لوصيفتها التابعة له..

أما الآن وقد وقعت في يده الأميرة «داشيتا» فقد يفوز بأكثر مما يلزم، يكفي فقط أن يعرف ماذا تريد..؟ وما خططها هي ووفدها العجيب..؟

لكنه عندما اقترب من القصر بدأ اندفاعه يخذله، وعقله النشط يُغير اتجاهه.. فلم يعد بينه وبين بيت الضيافة سوى خطوات قليلة، وهناك ربما تختلف الأمور ويتحول الريح من مجرد إرضاء «قمبيز» والفوز بثقته وعطائه إلى اعتلاء عرشه، فلربما يكون خلف تلك الفتاه جيش وثورة وخطط تُحرك المياه الراكدة.. وإلا فمن أين أتت بتلك الثقة في حديثها..!!؟

لم يتردد وزاد من اندفاعه أن لمح شبحها من بعيد، وهي تسير في الحديقة وحدها بعيدًا عند أشجار الليمون المثمرة، تعجب فهاهو قدره يتيح له أعظم فرصة ويفتح له الطريق على مصراعيه.. لا يحتاج الآن سوى قليلاً من الحذر والحكمة، وهما لعبتيه اللتان أتقن اللعب بهما زمنا طويلا.

سمعت خطواته الحذرة تقترب فانتفضت واقفة، كادت تصرخ منادية على رجالها، لولا أنه بادرها بقوله:

- حذار أن تنطقي يا «داشيتا».

تنهت كل حواسها وقد أدركت بفطرتها أن هناك من كشف خطتها.. نظرت

نحوه كان قد اقترب أكثر.. عرفته على الفور.. قالت في اشمئزاز:

- من.. «وزحاررسن» الخائن..

- هذه كلمة لا تناسبني الآن يا بنت الملوك، قولي بدلاً منها.. الحاكم.

- حتى تلك الكلمة تُعد خيانة مادامت تحت إمرة غازٍ مغتصب.

- كلُّ له هدفه أيتها الأميرة.. وهدفي أعرفه تمامًا ولم يعد أمامي سوى خطوات

قليلة وأصل إليه.. فما هدفك أنتِ؟

كان يقترب منها بهدوء كالثعبان مع كل كلمة وهو ممسك بخنجره في يده يخبئه

خلف ظهره، لكنها كانت ثابتة، وقد علمتها الأيام أنه لم يعد للخوف مكان في

قلبها، قالت بلا تردد:..

- قد يكون رأسك.

تبسم في خبث:

- هذا ما لا قبل لك به.. و الآن جاء زمن الإفصاح فييني وبين قصر «قمبيز»

خطوات يُفتضح بها أمرك.. وليس أمامك سوى مهادنتي وإخباري بكل شيء عن

خطتك ومن وراءك؟ فكري جيداً فرب أكون أنا خير معين لك فأننا مصري مثلك،

وهؤلاء مجرد فرس ليسوا من دمائنا

- لا تقل مصري مرة أخرى.. فكل ذرة تراب بتلك الأرض الطاهرة تلعنك

وتتبرأ منك، ولتعلم أنني لم أهادن خائناً من قبل، أما يكفيك ما جلبته للبلاد من

هزيمة ولنفسك من عار ستنال عقابه يوماً..؟ وسيعيش أبناؤك به بقية أعمارهم.

رفع صوته قليلاً وقد أخذ الغضب:

- سيفخرون بي حين يجدونني حاكماً لمدينتي التي أحبها، وسيغرقون في نيعمي

وذهي وكنوزي..

- مازلت تحلم أيها المسكين.. قد يكون «قمبيز» احتاج إليك لفترة، لكنه ملك من

سلالة ملوك، وأول درس يتعلمه أبناء الملوك ألا يحتفظوا بخائن لبلادهم ساعدهم.
سرت الدماء في وجنتيه وارتجفت عضلاته وخفق قلبه، ثم تحول صبره في لحظة إلى غضب وفي خطوة واحدة كان قد أصبح قريباً جداً منها، فهجم عليها وأمسك بها مهدداً لها بخنجره الذي وضعه على عنقها.

- والآن ليس أمامك خيار آخر فحياتك في يدي، وستخبريني الآن عن سر هذا الوفد الذي تقودينه، وإلا ستشرق الشمس على رؤوسكم جميعاً معلقة على أبواب المدينة..

- أترك عنقي أيها الخائن الجبان، وواجهني بسيفك إن كنت رجلاً.

أم أنك تخاف أن تهزمك النساء؟

ضغط بقوة على عنقها ووضع خنجره على صدرها وهو يضحك قائلاً:

- لن تستطيعي إثارة كبريائي فأنا رجل سياسة ودهاء وتلك لعبتي أنا و

سأعرف هدفك شئت أم أبيت.. وستخبريني الآن عما أردت وووو... آه

لم يكمل كلماته، وكانت صرخته التي أطلقها هي الصرخة الأخيرة التي خر على أثرها صريعاً.. وسقط خنجره من يده..

انتفضت «داشيتا» فرعة وهي ترى «وزاحررسن» يتهاوى على الأرض وفي ظهره رمح طويل قد أصاب هدفه القاتل بدقة..

نظرت بسرعة نحو الجهة التي أتى منها الرمح، لمحت شبحاً يتعد ويصعد السور في مهارة وسرعة.. لم تنطق أو تحاول أن تجمع عليه الحرس لكنها شعرت بداخلها بالسعادة لأنه خلص الدنيا من رجل لا يستحق نعمة الحياة.. ورغم ذلك أسرع نحو بيت الضيافة فحتى الآن لم يشعر أحد من أهل القصر بما حدث، ومن حسن قدرها أنهم سيجدون جثمان «وزاحررسن» بين أشجار الليمون بعيداً عن بيت الضيافة وبذلك سيبتعد الشك عن الوفد النبوي تماماً..

حارس الزوارق



لم يكن «حاروز» راضياً عن بقاءه حارساً للزوارق وافتراقه عن «داشيتا» وهي في أكثر مكان يمكن أن تحتاجه فيه، لكن إصرارها على بقاءه وخوفها عليه من مغامرة دخوله القصر، وكشف «قميز» له اضطره في النهاية إلى البقاء إرضاءً لها.. لكن الليل طال، ولم تأت أخبار عنها ولا عن أصحابه، خاف أن تكون حيلتها قد تم كشفها.. فقرر أخيراً أن يتحرك ويستقصي الأخبار بنفسه مهما كان الثمن، كان قلقه عليها لا يوصف، لذلك بدأ يتحرك في حذر ففكر أن يتخذ من ماء النيل مكاناً يحميه ويخفيه عن العيون فبدأ يسبح باتجاه القصر الكبير الواقع على الشاطئ، راقب الجنود من بعيد، وعين أماكن الحراسة.. ثم بدأ يصعد من النهر في مكان خالٍ من الحراسة، وقبل أن يقترب من الجدار، وجد شبحاً فوق سور الحديقة يقفز إلى النهر بسرعة.. لاحظ الحرس الشبح فتحركوا نحو هذه الجهة من السور، وفي لحظات ارتفعت المشاعل، وعلت الصيحات، متجهة إليه، فلم يجد مفراً من القفز في الماء، والهروب بأقصى سرعة قبل أن يعود إلى سجن ما زالت أثاره علامات بارزة على جسده، وقبل أن يصلوا إلى مكانه كان قد اقترب من مكان الزوارق وبدلاً من أن يجلس يجرسها زحف إلى قاع زورق وقضى ليلته مختبئاً فيه، وهو يسمع وقع أقدام الجنود، وهم يقطعون حدود الشاطئ، يبحثون عن حركة أو شبح يتحرك مختبئاً لكي يوقظ الحياة في رماحهم الطويلة.. حتى أشرقت الشمس.

في جناحها الملكي ارتفعت ضحكات «نيتيس» الجنونية، وهي تسكب صرة من الذهب الخالص على رأس «طاهو» هذا الرامي الإغريقي البارع الذي كان ضمن جنود المرتزقة، والذي نجح رحمة في إبعاد غريمها عن دنياها:..

- أخبرني كيف فعلتها يا «طاهو».. فذكر موت هذا اللعين يُمتعني.

- منذ شهور يا مولاتي الملكة وأنا أراقبه ليل نهار، لكنه ثعبان ماكر لا تغفل له عيون ولكن هذه المرة كانت المرة الأولى التي يتخلى فيها عن حذره، ويتحرك بلا حرس..!! تعجبت لذلك وتابعته من بعيد حتى دخل القصر فصعدت إحدى الأشجار لتابعه وهو يتحرك متسللاً في الحديقة، حتى وصل إلى الفتاة التي كانت تسير بين أشجار الليمون، وعندما أعطاني ظهره وهو يمسك بها ويحاول سلب روحها بخنجره، كان رمحي هو الأسبق إلى روحه.

تعجبت «نيتيس» :

- فتاة.. أية فتاة.. من هي..؟

- النوبية يا مولاتي.. تلك الساحرة التي أتت مع الوفد لمقابلة مولاي الملك.

- نوبية، وساحرة أيضًا.. متى حدث هذا..؟ لقد بدأت أشياء كثيرة تحدث في القصر، ولا تبلغني في وقتها، ولكن ما علاقة «وزاحرسن» بها..؟ ولماذا كان يحاول قتلها..؟

- لا أدري يا مولاتي لقد كان يهددها، ولكن المسافة بيني وبينه كانت بعيدة فلم أسمع حديثهما، إلى أن رأيته يجيء خنجره خلف ظهره، وهجم عليها ليقتلها.. لكنها كانت لا تهابه..

- أشم رائحة الخطر يا «طاهو»، هذه الفتاة يجب أن أراها، وأعرف ما وراءها..

أحنى طاهو رأسه لها قائلاً:

- لقد علمت يا مولاتي أن مولاي «قمبيز» قد حدد لها موعدًا بعد ظهر اليوم

ليلقاها هي والوفد النوبي، فقد عرضت عليه أمورًا تخص الحرب مع الإثيوبيين.
- حسناً ما زال الوقت مبكراً.. يمكنني قبل ذلك أن أعرف كل ما أردت معرفته..

قالت الملكة ذلك وأدارت ظهرها إلى الرجل ومشيت بخطوات واثقة في البهو الفسيح المعبق بروائح الطيب والبخور المتلألئ بأنوار المصابيح، وما لبثت أن غابت خلف باب حجرة نومها لحظات، ثم خرجت وقد وضعت على كتفيها عباءة فارسية فاخرة، وارتدت بعضاً من حليها الذهبية، قالت لخدمتها:

- أخبرني حربي بالاستعداد في حديقة القصر فسأخرج إليهم الآن.. أما أنت يا «طاهو» فاجمع ذهبك الآن، وأسرع بالاختباء بعض الوقت إلى أن أرسل لك، فربما يكون أحد الحرس قد تعرف عليك.

- مولاتي، لقد كان الوقت ليلاً ومن الصعب فيه تمييز الوجوه.

انتبهت الملكة على صوت خطوات قوية تقترب، من جناحها، وبعد لحظات كان «قمبيز» يدفع الباب في عنف، وخلفه بعض قادة جيشه.. ارتعدت فرائص «طاهو» الذي كان يجمع ذهبه بينما أسرع «نيتيتس» نحو ابنها في ذهول وقد بدت على وجهها آثار الفزع، فبادرها قائلاً:

- هل حصلت الملكة العظيمة على ما أرادت..؟

حدقت في وجهه للحظات، ثم تماكت أعصابها، وقالت:

- «قمبيز» ولدي.. أي ريح طيبة أنت بك الآن.

نظر قمبيز نحو «طاهو» الواقف يرتعد وقد سقط الذهب من بين يديه، ثم التفت إليها وعلى وجهه نظرة نارية قائلاً..

- رياح المؤامرة، أيتها الملكة المهيبة، فما عدت أعرف من منا يحكم تلك البلدة،

ويقرر مصير من فيها؟

- ماذا تقصد..؟

- الملكة تعرف جيداً أن غريمها «وزحاررسن» قد رحل الآن..

- رحل أخيراً.. إلى أي البلاد قد فارقتنا بشره وخيانتته..؟

تحولت نظرتة إلى السخرية:

- رحل عن دنيانا، برمحٍ إغريقي في ظهره.. وهأنتِ تكافئين قاتله.

حاولت مرة أخرى أن تتماسك:

- ماذا تقول..؟ كيف تتهمني بهذا الاتهام وأنا أمك.. أمك يا «قمبيز» أنسيت،

كما أنني أيضاً ملكة مصر وفارس، فكيف أتخذ من مثل هذا اللاشيء غريباً لي؟

- هذا ليس اتهاماً أيتها السيدة الجليلة، بل واقع حي يتوجه الذهب.. وهذا

الإغريقي الساذج ما فضحه إلا تعجله لنيل ثمرة ما فعله، ونسي أن هذا القصر

تحول إلى قصر للمؤامرات وصار لكل من فيه عين على الآخر.

- ماذا تقصد..؟ هل كنت تراقبني..؟

- ليس بالمعنى الذي تبادر إلى ذهن ملكة المؤامرات إنه نوع من الحماية وأنا

ماجئت هنا لأحاسبك أيتها الملكة القوية سليلة الأجداد، بل لأريحك من الكثير مما

تعانينه، فقد تعبت كثيراً في إعادة البريق لما شيده آباؤك، وتعبت أكثر في الإنفاق على

من يقومون بحمايتك.

ماذا تقصد..؟

- لم تعود بحاجة لهم، بعد الآن فمنذ اليوم أصبحوا في صفوف الجيش

الذهاب لفتح الجنوب، وأنتِ بحاجة ماسة إلى الراحة في جناحك وتحديد إقامتك

فيه لبعض الوقت، بعد ما عانيته من جهدٍ في الأيام الماضية، وقد عملت جيداً على

تأمين هذا الأمر، أما ما فعلته من إعادة البريق، لتاريخ آباتك، فهو عمل رائع، يستحق أن تفخري به، وسيضيفه هذا الشعب إلى تاريخي، وإنجازاتي ويقربني منه.. فأنا بحاجة إلى تأييد الكهنة، والكثير من المال والرجال لتمويل هذا الجيش..

- «قمبيز» ماذا تقول..؟ تحدد إقامتي أنا.. كيف تفعل هذا بأملك.. ألا تشعر

بالذنب لهذا الجرم البشع.

- لقد سبق أن فعلت أكثر منه بأخي وقد علمتني من قبل أنني لا أترجع.

قالها «قمبيز» وهو يصفع الباب خلفه بعد أن تركها تتهاوي على الأرض باكية،

وأخذ رجاله معهم «طاهو».



obeyikan.com

لقاء جديد



في بيت الضيافة قضت «داشيتا» ليلة قلقة تنتظر في كل لحظة أن يأتي من يكشف أمرها هي ومن معها، أخذت الأفكار تتصارع في رأسها.. فإن كان «وزحاررسن» قد مات، فهل كان وراءه أحد.. وهل تعرف عليها غيره..

لكن موجه دافئة من السعادة سرت في قلبها، حين تذكرت الرمح الذي قتله وشعرت بأن «حاروز» المحب هو حارسها الأمين، ومنقذها في الشدائد.. إنها ضربة في مقتل و«حاروز» من أمهر من يستعملون هذا النوع من الرماح.. ولكن لماذا فر بعد أن قتله وتركها مع جثته وحيدة..؟! لماذا لم يقترب منها، أو يُظهر لها نفسه..؟ هل أراد أن يشعرها بحمايته لها في الخفاء، أم لا يريد أن يُحملها جميلاً آخر يدفعها إلي حبه.. يا له من محب صامت وكبير القلب.. أحياناً كثيرة تشعر بأنها تميل إليه.. لكن كل شيء يدفعها للابتعاد عنه..

ارتجف قلبها.. وبدأت المخاوف تحيطها، وماذا لو كانوا قد قبضوا عليه في أثناء هروبه.. ربا.. ستكون كارثة، هتفت بصوت مرتفع:

- نعم ستكون كارثة..

أفاقت من شرودها على صوت «بويا» الذي جاءها مطمئناً:

قد يكون بهذا التحجيم قد حماها من نفسها قبل أن يحمى عالمه منها!!..!!
ولكن هل حقا نجح في كبح جماحها..؟ أم أن نفوذها مازال أقوى مما يمكن تخيله؟

وهل غاب حقا «وزحاررسن» عن عالم الأحياء؟؟ فبرغم أنه لا يحب ويكره رفقته.. إلا أنه افتقده..!!

حين رأي جثته مسجاه وفي ظهره الرمح.. شعر أنه فقد شيئا كبيرا.. فقد كان هذا الثعبان هو همزة الوصل بينه وبين عالم المصريين العجيب، فهو دليله في صحرائهم، وزورقه في مياههم.. ولسانه أمام كهنتهم.. إنه نموذج للقائد المحنك والطبيب القدير والكاهن المتمرس والعالم المتميز.. الذي يمكنك شراء ولائه بحفنة من الذهب.. «حتى لو كان هذا الولاء مؤقتا».. فإن له أهمية كبيرة في هذا الوقت.. إنه حقا خائن بل أحقر خائن رآه.. فمن علمته بلاده كل هذا كيف يخونها..

ورغم أنه كان سيتخلص منه في النهاية.. وذلك لعهد قطعته على نفسه، إلا أن فقدته له في تلك المرحلة يُعد خسارة فادحة..

أراد «قمبيز» الاسترخاء.. وأن يركن إلى الراحة بعد هذا الجهد وذلك العناية الذي كابده في الساعات الماضية لكنه تنبه على صوت طرقات خفيفة تدق ببابه فقد كان خادمه يُذكره بذلك الموعد الذي ضربه للوفد النبوي لمقابلتهم عصر اليوم ويخبره بأن الوفد بانتظار اعتلائه للعرش والسماح لهم بالدخول..

انتفض «قمبيز» قائما.. وقد لاحت أمام عينيه صورة «داشيتا».. تبسم وتذكر عينيها الرائعتين.. كم كانت لحظات عميقة السعادة تلك التي أبحر فيها بين أسرار تلك العيون السوداء اللامعة.. إنها حقا ساحرة.. نعم ساحرة الجمال.. كما أنها رشيقة مشوقة القوام، واثقة النظرات، تعرف ما تريد، لكن ما تريده رغم توافقه مع ما يرغب يُسقط من قيمتها عنده، ويزعزع ما كان يتمنى لها من مكانة، حين غزت

عينها قلبه، فهي رغم كل شيء قد جاءت تحمي قومها على حساب خيانة ملك بلادها، وتطلب لهم الأمان على أن يخونوا من يحكمهم، ويفتحوا الأبواب، ويساعدوه كغازي لبلادهم.. هل تصبح هذه الجميلة بالنسبة له « وزحار رسن » آخر و « فانيس » جديد أم أن الأمر به بعضًا من الاختلاف.. شعر بغصة عميقة في قلبه، فههي الخيانة ما تزال تحيطه من كل مكان حوله، وتُصر على أن تكون أعظم أسلحته في فتح البلدان التي يتجه نحوها بجيشه، حقًا لم يعد هناك قيمة واحدة يمكن له أن يحترمها.. وحينها لاح له صوت أمه وهي تلقنه أفكارها صغيرًا قائلة:

- قيمة الأشياء ليست في ذاتها، وإنما الإنسان هو الذي يضع القيم للأشياء تبعًا لطبيعته، وجوهره!!.. وجوهرنا هو السيادة والقوة، فنحن الذين يجب أن نضع القيم المناسبة لطبيعتنا، ليؤمن بها من حولنا.

لكن معلمه كان دائمًا يلقنه عكس كلامها بقوله:

- لا يجني الإنسان من الوجود أعظم الثمار، وينعم بما فيه إلا إذا تمسك بالفضيلة، وأعلى من قيم النبل، والوفاء، وكره الخيانة.

وقد وجد « قمبيز » لكلام معلمه الصدى الأكبر في نفسه، وبنى عليه حكمه، وحكمته أيضًا.

مر بعض الوقت قبل أن يأمر خادمه بأن يُعد له حمامه الدافئ، ويساعده في ارتداء ملابسه، حيث اتجه بعدها نحو قاعة العرش، وعكف قليلاً على الاطلاع على الخطابات والتقارير الواردة من كافة أرجاء البلاد، حتى إذا فرغ استدعى الوفد النبوي الذين أقبلوا فركعوا عند تجاوزهم للباب، وبعدها تقدموا جميعاً عندما سمح لهم بذلك، وقد كان هذه المرة أكثر إشراقاً، فقد بدأت معالم الطريق تتضح في عقله العسكري البارِع في التدبير، وقد رأى أنهم سيكونون فرصته الكبرى في الرد على غرور ملك الإثيوبيين وقهره في وقت أقل بكثير مما كان يخطط له، كما أن خطة هذه

الساحرة الكاهنة التي أبهرته بجمالها، قد أبهرت عقله أيضًا ووافقت منابع القوة فيه، حيث قد أنت له بفتح جديد لا عناء فيه، سوى مشقة المسير واجتياز الصحراء، تلك الصحراء التي أصبح اجتيازها نفسه هو أكبر تحدٍ لقوته، بعد أن ابتلعت من جنده جيشًا بأكمله منذ شهور!!

رآها بينهم تقترب، وكأنها لم يقو «قمبيز» على الانتظار، تابعها بنظراته المسحورة بها، إنها حقًا تختلف عن كل من رأى من النساء، ففي عينيها جمالاً وقوة وحزن، والكثير من الأسرار...!! كل هذا كان يجذبه إليها..

هي أيضًا لا تستطيع أن تحول نظراتها عنه، لا تدري أي قوى سحرية تجذبها إليه، وأحست بالضآلة والرهبة والضعف، ونسيت للحظات شعورها العميق بالانتقام منه، وبدماء عائلتها التي تطالبها بالثأر، وراحت الحمرة المضرجة والشحوب الممتقع يتناوبان على ملامح وجهها، وهي ترى نظراته الثاقبة المسلطة عليها، شعرت بالخجل، فأحنت رأسها قائلة:

..مولاي الملك المعظم، مُفني الجيوش، ومزلزل العروش، الذي إذا حكم أنصف، وإذا قدر عفى، قد وعدنا بأن يتكرم علينا برأيه اليوم.

إذ ذاك لانت قسامات «قمبيز» وهزت الكلمات زهوه وقد بدا له حرصها على الفوز برضاه فتبسم أخيرًا وهو يبلغهم قراره:

..فليذهب الوفد إلى النوبة ليبلغوا الأمان الذي أهبه لكل أهلها، وساكني قراهم، على ألا يحمل منهم بشرًا سيفًا في وجهنا، وأن يفتحوا لنا الأبواب والحصون، وأن يجهزوا لنا ما استطاعوا من مؤنة، وماء لمتابعة مسيرتنا لفتح الجنوب الإثيوبي كله.

أما أنتِ أيتها الكاهنة الحكيمة «داشيتا» فستمكنين معي هنا.

انتفض قلب «داشيتا» عند سماعها لتلك الكلمات، وظهر الاضطراب على

- الذكريات عموماً لا تخلوا أبداً من ألم، ولكن ما الذي سنجنه من المرارة التي نختزنها في أنفسنا..؟ لاشيء إلا أن تتحرك أفئدتنا للحقد الأسود فينهشنا ويضرم في جوانحنا نيران العذاب، فنخطيء التصرف، ويضيع بخطأنا كل من حولنا..
أحنت «داشيتا» رأسها خجلاً، ووضعت قوسها وسهامها جانباً قائلة:
- صدقت.. صدقت.

اتجه العم «بويا» نحو الباب وقد شعر بالاطمئنان، وقبل أن يخرج التفت إليها وقد ظهرت على وجهه ملامح الجذ والقوة تلك التي كانت تختفي دائماً خلف ابتسامته الطيبة، قال لها:

- نحن الآن في مهمة لإنقاذ شعوبنا كلها، وليس من حق أحد منا أن يتصرف تصرفاً فردياً مهما كانت تناديه صيحات الثأر التي بداخله، وقد نجحنا على الأقل حتى الآن، ونحن الذين سنحدد بحرصنا.. كيف يمكن أن نكمل نجاحنا فيما نحن مقدمون عليه.

تنهد ثم نظر لها وقد عاد لوجهه هدوئه وصفاء ابتسامته ثم أكمل:

- و العبرة يا ابنتي في الرضا الذي يُنزل على قلوبنا السكينة، أو القلق الذي تضيق به صدورنا، وسيكون عليك أنتِ العبء الأكبر، والأخطر، فهل تجدين في نفسك القوة لذلك.

قالها وانصرف بعد أن نجح في أن يثير جوانب من كهوف ذاتها، وأن يجلو الضباب عن بصيرتها.



«نيتيتس» بلا حرية



مرت بـ«نيتيتس» ساعات حافلة بالشقاء فقد باتت سجينة في مخدعها تحت حراسة الجنود لم تستطع أن تكبت إحساسها بالقهر.. فكيف لمثلها أن تروض نفسها على الصبر والتحمل بعد أن عاد إليها ملكها وسلطانها، ياله من حملٍ ثقيل يرضيها تحمله، لا تكاد عند التفكير فيه تستطيع حتى أن تتنفس، فمازلت تجد آثار الفجعة لاذعة حارة جديدة في نفسها كأنها لم تمض عليها ساعة من نهار، ومع هذا فتبدو لها تلك الساعات القليلة الماضية عليها في محبسها كأنها دهورًا وأصفاد، كانت تحس أنها انتقلت إلى عالم من الفراغ.. إلى عالمٍ بغيبض انحسرت عنه كل مباهج الحياة، صاحت كثيرًا ولعنته أكثر، حطمت في ثورتها الكثير من التحف، وقوارير العطر التي تعشقها، لطمت وصيفاتها، ومزقت وسائدها، دقت الباب طويلاً وصاحت بحرسٍ مُنعوا أن يفتحوا لها، وأخيرًا أحست بالخور والوهن يغلبانها وتهاككت على أريكة قريبة فغشيها النعاس..

بينما كان «قمبيز» الذي ظل بعد خروج «داشيتا» من مجلسه سارح الطرف شارد الذهن، وقد شعر بالكثير من المشاعر الدافئة، والسعادة التي لم يعرف لها سببًا، ولم تطرق بابه من قبل، فهو حتى الآن لا يدري أو يعرف شيئًا عما يسمي بالحب الأول، ورغم فتوته وشبابه، وكثرة من بالقصر من جوارٍ ومحظيات إلا أنه لم يهتم بهم

يومًا، فحياته التي لم يكن بها غير الصراع والدماء، والرغبة في التملك، وكلما طمع في شيء شعر بأنه عبد لرغبته في الحصول عليه...!! حتى إذا بلغه حرر نفسه من عبودية رغبته في تملكه، كي يستسلم في الحال لعبودية الرغبة في حلم آخر.. مطمع آخر، وكان يشعر دائمًا أنه لن ينقذه من عبودية رغبته إلا موته...!! فإرادة الحياة عنده هي أن تغزو أن تهجم لتنتصر، لتمتلك.

أما هي فلم يجد في نفسه الشعور بتملكها، ولو أردا ذلك لما منعه شيء، وهو الملك المطاع، لكنه شعر برغبة عارمة في أن يراها أمامه دائمًا، أن يبقها بجانبه بعد أن فقد كل من كان يحمل لهم بعضًا من المشاعر، أراد أن يربح شيئًا بداخلها، أن يفوز بها هو أعلى من جسدها..

دون أن يدري وجد قدماء تتحركان في القصر باتجاه جناح أمه «نيتيس»...!!

لا يعرف ما الذي دفعه إلى هناك...!! وكأنها قد نسي ما كان بينهما، أو أن هناك شيء يدفعه من الداخل نحو أمه، التي كان كلما فرح في طفولته بشيء جعل لرأيها نصيبًا فيه مهما اختلفا..! فقد كانا معًا في بلاد فارس وحيدين، رغم انتهائه لأبيه، إلا أنها حرصت على أن تربيته على كونها كتلة واحدة مختلفة عن كل من حولهما.. تفرح لانتصاره، وتهلك لانكساره.. ورغم ذلك هي وحدها التي تستطيع أن تشحذ عزيمته بطاقتها العجيبة على التحدي، وتدفعه لاقتحام أشد أنواع الأخطار.

فزح الجنود لرؤيته، وأسرعوا يفتحون له باب جناحها.. نظر لهم متعجبًا لوجودهم، وكأنها نسي أنهم هنا بأمر منه.. لكنه عندما وضع قدمه بالداخل، ورأى النظرة النارية التي استقبلته بها «نيتيس» أفاق من حالته الحاملة، وتذكر في لحظات قول معلمه «كنترياس» (إن أبشع ما يسدده إنسان نحو إنسان هو نظرة احتقار).. شعر برغبة عارمة في التراجع، لكنها كانت فرصتها في حصاره.

قالت بنبرة ساخرة:

- هل جئت مرة أخرى لتروض اللبؤة الحبيسة..؟

رماها بنظرة قاسية.. لكنه تذكر أنه جاءها بقدميه، فحاول أن يتكلف البسمة قائلاً:

- لم أضعها في قفصها الذهبي المؤقت، إلا لأحميها من نفسها، ومن طموحها..

ثارت ثائرتها، وضربت بيدها أبريقاً من الفخار فحطمته وهي تصرخ قائلة:

- عن أي طموح تتحدث، وكيف تحاول تحجيمي، وأنا التي زرعت فيك الطموح، وريبتك على أن تسود العالم.

لكن «قمبيز» الذي لم يكن يريد أن يعكر من صفوه في تلك الساعة، قال لها:

- أنا ذاهب إلى فتح بلاد النوبة، وإخضاع الجنوب الأفريقي كله لسلطاني، وما أريد أن أرحل، وبينني وبينك هذا الشقاق.. سأصرف الحرس عن بابك، ولكن لا تحاولي أن تعيديني إلى ما كنت عليه من غضب.

لاحظت، أنه ليس في حالته الطبيعية، فهو لم يتراجع عن قرار اتخذه في حياته، كانت عيناه تلمعان في غير ثبات على عكس عاداته، خفق قلبها، وخشيت عليه من خطر لا تعلمه، اقتربت منه، وضعت يدها على صدره.. لم يمنعه!! قالت:

- بني، ادرس الأمر جيداً، أخشى أن يكون ما أنت قادم عليه من حرب الصحراء، هو الخطر نفسه، وقد فقدت الكثير من جنودك في بحر الرمال الأعظم.
- وهل كنت يوماً أهاب الخطر.. ما بين الحياة والموت لا أزال دائماً أقاتل..
لأعرف أنني لازلت حياً..

تذكرت في لحظات ما سمعته من «طاهو» عن الفتاة التي بالوفد النوبي، قالت
بدهاء:

- سمعت أن ساحرة كاهنة قد حلت بقصرك، وأخشى أن يكون قد أصابك

شيء من سحرها.

انتزع يدها من على صدره باسماً، وتحرك نحو الباب، وكأنها قد عادت إليه
حالته الأولى، من الانتشاء، قال وهو يغادر المكان:

- تمنيت ذلك..

وتركها في حيرتها، لم يرو ظمأ فضولها..، ولم يشعر بالقلق لإطلاقه لها..!! فرغم
كل شيء فهي خير من يحكم البلاد، وسيطر عليها في غيابه، كما أنها لا يمكنها
خيانته فهو حلمها، لذلك أعطاها حريتها..



قريبًا من «قمبيز»



عند النهر كانت «داشيتا» تودع الوفد، حرصت على أن تكون هناك لترى «حاروز» وتضع معه الخطوط الأخيرة للخطة القادمة..

كان رغم كل شيء نائزًا لبقائها مع «قمبيز» رافضًا لمغادرة البلاد مع رجاله خوفًا عليها، فكيف يفارقها ويتركها عند عدوها..؟ لكنها هي والعم «بويا» نجحا في إقناعه أخيرًا في العودة ليرتب كل الأمور، وخصوصًا أن ملك الفرس، قد أعلن أنه سيتحرك بالجيش بعد أيام..

قام ليودعها، كان الإحساس بالمرارة ظاهرًا في صوته ورفع «حاروز» رأسه للحظات، ونظر إلى عيني «داشيتا» التي رأت أمامها عينين سوداوين حزيتين وخاليتين من كل معاني الحياة، ثم خفض رأسه مرة أخرى، شعر بأن الأيام تفرقهما من جديد وهو الذي بنى في أحلامه عشها المنتظر، ومضى بخياله يطوي الأيام، وعاش هذه الأحلام عيشة الواقع، حتى لم يعد يفرق بينه وبين الحقيقة.

هي أيضًا تحتاج إليه، ويؤملها فراقه، لكن الأيام القادمة ستحدد كل شيء..

كان عليها ألا تُلقت نظر رجال «قمبيز» إلى اهتمامها بحاروز..

تحركت الزوارق ببطء فوق صفحة النيل، لم ينطق «حاروز» ولم يحاول توديعها إلا بنظرة أودعها كل ما في قلبه من أشواق، بينما عادت إلى القصر، حيث أمر لها ملك الفرس بإحضار أغراضها من بيت الضيافة و أعد لها حجرة أنيقة قريبة من جناحه..!!

مرت أيام على وجودها في قصر «قمبيز» حرص فيها أن يجعلها قريبة منه، رغم أنه لم يتحدث معها سوى كلمات قليلة خلال تلك الأيام، لكنه كان يُصر على وجودها، ربما لشعوره أنها يجب أن تكون بجانبه، وهي أيضًا كانت تحس تغيرات عنيفة في داخلها، وصراع يومي بين ما تؤمن به، وما تراه..!!

فهاهي ترى الملك الجبار، الذي طغي وأهلك أهلها وقومها، كل يوم في ثوب مختلف..!! يقابل وفود المصريين، ويعيد بناء ما تم تدميره، وأكثر من ذلك، فهو يعامل أطفالهم برقة، ويخنو عليهم.. ويرسل لأهالي الضحايا الطعام والكساء.؟

حتى صارت تحشى على نفسها من أن تتفتت صلابتها وتفقد تماسكها فصارت تقضي ليلها مع ذكرياتها تتابع أمامها في كل لحظة ما مر من أحداث، كأنها صور متشابكة، صياح الأطفال والأرامل.. بكاءهم عند غزو جيوشه لهم، دماء أسرتها، وفقدانهم.. فتغلي الدماء في عروقها، وتفكر كل لحظة في الانتقام.. لكنها الآن وهي بالقرب منه، صار من دواعي الأمن ألا تحتفظ بسلاحها.. لم تعد تملك ما يشعرها بالأمان، وقد صار ما حولها في تناقض مستمر محير للعقل، فلربما تكون تلك العاطفة التي يتعامل بها معها، ومع المصريين هي من دواعي السياسة، وطريقته لاكتسابهم، ومحاولته منه لربح حليف جديد، شعب كامل قد غزاه وحاول كثيرًا أن يقنعه، بأنه وريث حقيقي لتاريخه، وفراعنته، ومؤسس للأسرة السابعة والعشرين بعد فناء أسرتها..

أما معاملته الرقيقة لها فقد كانت هي ما أثار بداخلها الصراع، فما أكثر الأشياء

التي كانت واثقة منها قبل أن تلقاه.

بينما عادت الملكة « نيتيس » إلى ما كانت عليه من دهائها القديم، و محاولاتها الدائمة لاستعادة المجد، وبث عيونها على كل من حولها، بينما حاولت جاهدة أن تحتفظ بما أظهره «قمبيز» نحوها من عطف، وألا تثير زوابع مخاوفه من ناحيتها، وأن تتحاشى الصدام معه، لكنها لم تنس لحظة، ما سمعته من «طاهو» عن لقاء «وزحارسن» بتلك الفتاة النوبية قبل موته.. وأثارها أن تجدها قريبة من «قمبيز» دائماً، وتعجبت لما يوليها من اهتمام.. ورغم هذا لم تشأ أن تتدخل في الأمر حتى لا تبدأ الصدام معه من جديد.. ولم تغفل عنها لحظة!!



obeyikan.com

صراع في القصر



السماء تحتق بغيوم صيفية حارة.. «قمبيز» يستعد للرحيل في اتجاه الجنوب، وقد صار الجيش على أتم الاستعداد، وأصبح الزحف على «بلاد كوش» وشيكًا.. ينتظر الجميع بين عشية وضحاها أوامره بالتحرك..

لكن فضول «نيتيس» هو أيضًا لم يعد يتحمل الانتظار.. فكل ما أرسلته من عيون، لم تنجح في أن تُشيع فضولها لمعرفة سر تلك الفتاة النوبية، فقررت المواجهة، وأن تبدأ بالزحف نحو هدفها قبل أن يغادر السهم قوسه، فقد علمت بأن «قمبيز» قرر أن تصحبه النوبية في عربته الحربية، وهذا ما لم يفعله في كل معاركه حتى معها هي حين فكرت أن تصاحبه في حملته على مصر، وهكذا سيطر عليها قلقها وصارت تحشى عليه من مؤامرة مدبرة.. فخرجت تضرب طرقات القصر نحو غرفتها، وبلا استئذان دفعت الباب..!!

حاولت «داشيتا» التي أذهلتها المفاجأة الابتسام..!! وانحنى تحية للملكة.

قالت الملكة وهي تنظر لها بفضول وتدور حولها:

- رائعة حقًا، إنك أجمل بكثير مما أخبروني عنك، هذا جمال لم

أره إلا في بنات الملوك، ليس عجيبيًا أن تكوني قريبة من ابني..

أحنت «داشيتا» رأسها خجلًا لكنها لم تتخل عن حذرها، قائلة:

في زرع رجالها لمراقبة كل مكان، وربما أن أحد عيونها رأى ما حدث وأخبرها..
لاسيبيل لها سوى الإنكار.. قالت بهدوء:

- ما أعجب ما تقولين يا مولاتي، أنا ماجئت هنا إلا منذ أيام ..

نفذ صبر الملكة فصاحت:

- لا تحاولي المزاوغة، ماذا كان يريد منك اللعين «وزحاررسن»، ولماذا حاول

قتلك..؟ ورائك من الأسرار ما يدفعني لقتلك من أجل معرفته.

- من «وزحاررسن» هذا؟ هل هو نوبي مثلي..؟ يبدو أن مولاتي اختلطت

عليها الأمور، والأشخاص أيضًا.

جن جنون الملكة، وشعرت أن الفتاة تنال من غرورها وتستهزيء بذكائها،

صرخت في غضب، وهجمت عليها، ورفعت يدها لكي تصفعها:

- سأسحقك أيتها الحشرة، إن لم تخبريني بكل شيء.

أمسكت «داشيتا» يدها بقوة وشيعتها بنظرة نارية، وهي تدفع يدها جانبًا وترفع

صوتها بغضبٍ وتحدي:

- على مولاتي أن تتحرى قبل أن تتهم الشرفاء بتهم لا يعرفون عنها شيئًا،

وعليها أيضًا ألا تنسى ما قلته لها عن أنني سليلة ملوك، ودماء الملوك لا تقبل بالذل،

أو أن تُرفع يدٌ على وجهها حتى لو كانت صاحبته تملك العالم.

في تلك اللحظة انفتح الباب بقوة وكان «قمبيز» هو الذي دخل مندفعًا بعد أن

أبلغه رجاله عن دخول الملكة إلى حجرة الفتاة، وسمع جملة «داشيتا» الأخيرة،

ورآها وهي تدفع يد الملكة جانبًا..

كانت المرة الأولى التي يرى امرأة يعلو كبرياؤها على كبرياء أمه، ظهر في عينيه

بريق الإعجاب.. بينما اندفعت «نيتيتس» الغاضبة نحوه كمن يحتمي بسلطانه

لتهلكها قالت في ثورة جنونية:

- كيف تتجرأين على الوقوف في وجه ملكة مصر وفارس أيتها اللعينة، من الذي دسك على «قمبيز» وما هي علاقتك بـ «وزحاررسن».

لم يشأ أن يسمع أكثر.. قال لأمه ببرود:

- مازالت الملكة العظيمة تتجرأ على كل ما يخصني، وتتدخل في شئوني دون أن تخبرني..

كانت كلماته كالصاعقة بالنسبة لها.. لم تتالك الملكة نفسها:

- ما يخصك..!! وفيما تخصك تلك الحشرة النوبية، وكيف تهاجمني وتركها، وقد رأيتها تتحداني، وتمنعي من لطمها وقد تجرأت عليّ.

صارت نظراته نيراناً تحرق قال:

- لطمها.. وكيف تلطمينها وقد قربتها مني، أليست تلك إهانة لي أنا..

- «قمبيز» تعقل يا بني.. إنها محتالة مدسوسة عليك، أرسلها للعين «وزحاررسن» فكيف تنصرها على أمك.

كانت تلك الشرارة التي أشعلت فتيل غضبه الجبار، قال في ثورة عارمة:

- «وزحاررسن» مازال شبح عدوك يطاردك، حتى وهو ميت.. هل تظنين أن شبحه يرسل إلينا سفراء ليقوموا بخطط لصالحه، أم أن قتلك له قد صار يطاردك مثلما فعل بي «بورديا» وها أنت قد صرت تتهمين الناس، وتبسطين سلطاتك الجنونية عليهم بسرعة غضبك وشكك وهياجك..

حاول أن يتماسك وهو يشعر بأعراض الصرع تتفاعل بداخله، فأشار لها بالخروج قائلاً:

- رجاء.. عودي إلى جناحك، وابسطي سلطانتك كما تشائين على جواريك،

وشعبك، أما «داشيتا» فلن يكون لك سلطاناً عليها أبداً..

أطرقت ولم تنبث بكلمة واحدة، فقد كانت كلماته قاطعة مانعة..!! أحست بوخذ في ضميرها، وانكسار لم تشعر به من قبل.. لم تحاول أن تقاومه أو تمنعه، بل استسلمت له وأخذت تتفجر منابع دموعها.. خرجت صاغرة.

وقفت «داشيتا» في ذهول، وهي ترى هذا الدفاع العجيب عنها، دفاع من لا يريد حتى أن يفكر، ووقفت تشاهد وهي متجمدة في مكانها لإعلاء الملك لها على أمه، إنه دفاع لا يصدر إلا عن محب..!! نعم إنه محب.

كان الأمر أشد قسوة على «قمبيز» وكأنه أتخذ قراراً من جهة خارجة عن عقله، تسيطر عليه..!! جهة لم يتعامل معها من قبل..؟! وبدأت أعراض الصرع تظهر عليه، وهو وحيداً مع «داشيتا» في غرفتها..!!

أخذت الأشياء والمناظر والأشخاص تتوالى في سرعة على عينيه المفتوحتين، كما تتوالى الذكريات الغامضة، والرؤى المرعبة، فلا تترك في حسه إلا أشباحاً وظلالاً يود الخلاص منها، وبلغ الإعياء منه كل مبلغ فاحتقن وجهه ثم ترنح في وافته، وهو يحاول أن يتماسك، وقد تعلق نظراته بها.. شعرت بالفزع، وهي تراه يسقط، أسرعت نحوه وقد أدركت بخبرتها الطبية، أنه مريض بالصرع.. فكان سقوطه بين ذراعيها..!! وانهالت معه على الأرض..

كانت أعصابه المتشنجة، تزيد من ثقله، ومن صعوبة تملكه، والسيطرة عليه، شعرت بأنها فترة عصبية، تلك التي احتوته فيها، حتى سكن أخيراً وقد أصابه الجهد، ظلت تجفف له عرقه..! نسيت الماضي كله في لحظة، وبلا شعور كانت تحنو عليه.

غرق قمبيز أخيراً في نوم عميق، بينما ظلت «داشيتا» تحديق بوجهه الذي ينعكس عليه ضوء القمر وجبهته المتأثرة بحرارة الشمس والتي يبدو عليها بعض

التجاعيد التي توحى بأنه يحلم بأشياء غير مريحة، لمحت في وجهه مرارة، وفي قسماته وجوماً.. أخذ يهذي ببعض الكلمات.. انحنت نحوه لتسمع ما يقول فوجدته يردد كلمة « بورديا.. الدماء.. نيتيس.. داشيتا.

لم يكن باستطاعتها أن تفعل شيئاً سوى أن تبقى كما هي.. بجواره!! وهي تعاني من كل ما يمتزج في صدرها من صراع، فهاهو غريمها بين يديها، في أقصى لحظات ضعفه، فاقداً لسلطانه وقوته، ووعيه.. وبإمكانها في دقائق معدودة الإجهاز عليه، بخنجره الحاد الموجود في جرابه، لكنها لم تجد في نفسها القوة لذلك، فهناك شيء بداخلها يمنعها، وهو الذي دافع عنها منذ قليل ضد أمه، كما أنها وهي الشريفة النسب، التي عاشت حياتها على المواجهة، لا يمكنها أن تغدر وتقتل رجلاً مريضاً لا وعي له، ولا يملك القوة للدفاع عن نفسه، أخذت الذكريات السود تتزاحم في رأسها وأحداث الحرب ودماء قومها وأشلائهم تترأى لعينيها، وجراحهم وأنيهم وتأوهاتهم وحشرجتهم تصك أذنها وتمزق أعصابها، ورأت على عينيها وقلبها، وعلى ذهنها ظلام دامس.

رغم ذلك حاولت كثيراً أن تمد يدها نحو خنجره، أن تقبض عليه.. كانت هذه المرة الأولى التي ترتعش فيها أناملها، شعرت بعاطفة جياشة نحوه، وسقط الخنجر من يدها المرتعشة، وسقطت معه دموعها، ما أضعفها الآن وقد زحفت عواطف الحب إلى قلبها وصدرها، وعقلها وتوغلت في روحها..

مرت الساعات، حتى بدأ يستعيد وعيه، وشعر حين أفاق بين ذراعيها براحة عجيبة، وأدهشها وروعها جمال البسمة التي أشرق بها وجهه.

نظر نحو عينيها المغرورتين، وملاحظها الوديعه الجذابة الحزينة، فإذا هي تحاول بشدة أن تبتسم، أمسك بيديها بين يديه، وهدق في وجهها، وهو يقول:

- حقاً من لا يبحثون عن الحظ يجدونه دائماً.

تخلت عن وضعها في الحال، وسرت الدماء في وجنتيها، واتخذت لوناً وردياً
سحره وغرقت في خجلها، فحاولت أن تغير الجو بابتسامة مغتصبة، وهي تسحب
يديها ببطء.. لم يمنعها، وقام محاولاً الاعتدال، فتراجعت إلى الخلف..

نظر إليها في صمت، فرغم كل شيء هي الآن تعرف عنه أكثر مما يعرف الآخرون
لم يشعر بالضيق لهذا الأمر.. شكرها وهو ينصرف..



obeyikan.com

الطريق إلى الواحات



الشمس الدافئة تشرق على بيوت وطرقات وقصور ومعابد
منف، لكن غبار الجيش الفارسي المستعد للخروج منها كان يجعل
الجو خانقاً..

المشهد رهيب..!! فهذه المرة سيقود «قمبيز» جيشه بنفسه، وقد
أقسم أن يرد إهانة ملك كوش لسفرائه.. جلست «داشيتا» بجواره في
عربته الحربية كما أمر، كانت ما تزال ذكرى تلك الليلة التي سقط فيها
بين يديها تشغل عقلها وتتحكم في وجدانها، حاولت كثيراً أن تطرد
مشاعرها الجياشة أن تحاصر هذا الحب الذي بدأ ينمو بداخلها، أن
تحرق بذوره بنيران انتقامها، وهاهي هذه المرة قد تسلحت بقوسها، و
سهامها..!! فلا شيء يمنعها من حملهم الآن، وهذه حرب لا هوادة
فيها، وهاهي ترى غريمها الذي نجح في أن يهز أوتار قلبها بجوارها،
وهو بكامل صحته وقوته، في طريقه لإهلاك بلدها الثاني الذي تربت
فيه.. عقدت العزم هذه المرة أن تكون أكثر قوة وشجاعة من سابقتها،
وألّا تجعل لعاطفتها مكاناً في انتقامها..

كانت جموع الشعب تملأ الميدان، تتابع العربات الحربية التي
تحمل القادة، فهاهو «رامون» الفارسي العنيف يقود جيوش
اليمين، وقد حمل أخيراً قوساً ضخماً وتره بيديه أمام «قمبيز»
وهاهو «بيخاروس» الضخم الممتليء الطموح يقود جيوش
الميسرة.. بينما توسطت عربة الملك المقدمة..

اقتربت «سيرينا» الجميلة زوجة «بيخاروس» من عربته لتودعه أحاطها بذراعيه في سعادة وقرب رأسه لتضع حول عنقه سلسلة بها تميمة للحظ.. شعر بالسعادة والثقة في نفسه حين لبسها، وانتفخ صدره في فخر بينما تابعه القائد «رامون» بنظرة سخرية واستهزاء ثم رفع رأسه في استعلاء.

صعد «قمبيز» إلى عربته الحربية، وقبل أن يجلس بجوار «داشيتا» وقف يخاطب جنده في شجاعة، وقوة تُحرك الأحجار قائلاً:

- يا أسود فارس، إن خلف تلك الصحراء الواسعة، والوديان الفسيحة، والكثبان الرملية، والجبال الوعرة.. هناك قوم كسى ظلام عقولهم أجسادهم سواداً، فأصبحوا يدعون أنهم بارعون في الرمي، وأن رماحهم خلقت لأعناقكم، وأنهم سادة حيث وجدوا.. يقولون أننا برابرة فارس، وقد غاب عن أذهانهم أنها بحدائقها المعلقة، ومياهها النقية، ونيرانها المقدسة، قد أنجبت أعتى الأجناد، وأقسى السواعد، فأروهم كيف تخترقون الصفوف، وتزلزلون العروش، وتسودون البشر.

تعالت الصيحات، وهاجت الخيول، وانطلقت العربات بإشارة منه، وسار الغبار، وتحطم سكون الصحراء..

كانت عربته في المقدمة، وقد أثارته كلماته، قائد عربته، فانطلق بها كاللهب، بينما جلس «قمبيز» بجوارها ممسكاً برمح الضخم، فقالت له وقد أعجبتها طريقته في إشعال حماس جنده رغم ما وجدت في نفسها من ضيق لسخريته من لون قومها - ما أشجعك يا مولاي يبدو أنك لاتعرف الخوف.

نظر إليها متعجباً:

- من لا يعرف الخوف ليس بإنسان، فالشجاعة ليس معناها أن لا نخاف،

لكنه الصمود والمواجهة في وجود الخوف.. إنه تحد للخوف بداخلنا.

أعجبها منطقته، وشعرت بأن وراء هذه الصورة الملكية الجبارة عقل يمكنها احترامه.

تحرك الجيش المهول محطماً لسكون كل شيء، وناشراً للخوف في كل قرية يمر عليها أو أكواخ للبطء.. العربات الحربية تخرق الطرقات والمدن وكأنها نيران الفرس المقدسة التي يحرق لهيها بقايا الأمان في العالم المطمئن.

أخذ الطريق يتعرج في مسرى حلزوني تقوم على جانبيه بيوت مضطربة مبعثرة في غير انتظام، بينما كان الشريط النيلي الأزرق الذي يلمع في ضوء الشمس يتعد تدريجياً، وبدأ الجيش يذوب في الصحراء عندما أخذت التلال اللامتناهية تظهر وسط الهدوء والسكون، وتتحرك في رمال تحيطها جبال مترامية الأطراف..

كانت الشمس الحمراء تسرع إلى مخبئها لعلها تقضي ليلتها في أمان، بينما ازدادت حمرة السماء، وتابعت العيون البحث عن مكان أفضل لقضاء الليلة الأولى قبل حلول الظلام..

وقف الاثنان في صمت ينظران إلى الصحراء الشاسعة وتكاملها مع الظلام في لوحة فريدة للسكون.. نزل «قمبيز» من عربته ووقف متأملاً لأضواء النجوم.. فتبعته «داشيتا» في حركة تلقائية، اقتربت منه قال في صوتٍ حالم:

- هنا وسط هذه الصحراء يفقد المرء كل أنواع الزهو، يشعر في داخله بنوع من السباحة، ويختفي قلق هذا العالم في لمحة عين.

- ما أعجب أن تتحدث عن السباحة، وأنت في طريقك للانتقام.

- الانتقام.. أي انتقام!!

- نعم ألا تريد الانتقام من ملك كوش.

- ربما، ولكن إنها مجرد قوة دافعة لتحقيق أحد أحلامي.

لاحظ علامات الاستفهام التي ظهرت على ملاحظها، أكمل حديثه:

- لا تعجبي يا «داشيتا» فأنا من النوع الذي يُصر على تحقيق حلمه حتى بعد أن

يغادر فراشه..

صمت لحظة ثم نظر لها بقوة قائلاً:

- وقد حلمتُ بأن أمتلك كل هذا العالم..

قالت في ضيق:

- ياله من حلمٍ ثقيل، سيدفع الكثير ثمنه..

- ربما.. ولكنه يوحد العالم تحت قيادة واحدة، هي الأفضل بالطبع..

- والضحايا من البسطاء والضعفاء..؟

- لا تفكري كثيرًا في هؤلاء، إنهم كالزراع الذي ينحني للعاصفة التي تحطم كل

ما يرتفع من أشجار، ثم يتحولون بالتبعية إلى خدمة من يسيطر، فهذا يا عزيزتي هو تحدي الأقوياء.

- ألم تفكر في الخراب الذي تجره الحروب، والويلات التي يعيشها الضحايا.

- كل هذا ثمن بسيط حين يريد بطل أن يوحد الأمم، فالحياة صراع متواصل

من أجل هدف أسمى وليس هناك لذة فيها تعادل لذة اشتباك نصال السيوف،

كالأفاعي.. وما لمعان الحديد إلا وهج شهوته إلى شرب الدماء، فليس في الأرض

شيء أدعى للسرور كالإرادة القوية السامية، لأنها أشرف ما ينبت التراب.

شعرت بالرعب، وهي تتخيل كم من الضحايا مطلوب سفك دمائهم ليتحقق

مثل هذا الحلم البشع، وتلك الشهوة للدماء التي يغلفها في ثوب من الشجاعة وقوة

الإرادة.. أطبقت بأصابعها على قوسها في محاولة للتمسك بشيء من العزيمة،

ضغطت بقوة على أسنانها، أعطته ظهرها، وتركته وهو في ذهول من انسحابها

المفاجيء.. أسرعت تبتعد.. فليس من السهل تحمل أحلام الطغاة..

سارت وسط ظلام الصحراء، وقد انسابت دموعها كالشلال، وهي ترى وجه زوجها الغارق في دمانه النبيلة وسط المعركة، أخذت تتعرقل في الرمال، وكأنها تتعرقل في جثث من ماتوا من ضحاياها، كان القمر الشاهد يتابعها، يسير معها، كأنها يراقب ضميرها، ويذكرها..!!

أقسمت ساعتها أن تحطم كبرياء المنتصر، أن تنهي أحلامه، ولا تسمح لقلبها بالسيطرة على انتقامها.

شعرت كم هي وحيدة في تلك الصحراء القاسية، وكم أصبحت بحاجة إلى قلب حقيقي يحتويها، يُشعرها بالأمان، ويمذاق الرحمة، والعطف، والعدل، والحب..!! لا تدري لماذا وجدت أمام عينها صورة «حاروز» تحترق ظلام نفسها، وتتألاً وسط نجوم ساءها المظلمة، وبدأت تشهد تفجر ينابيع الحس واللهفة في داخل قلبها الجريح..، عادت إلى خيمتها بعد أكثر من ساعة، وهي منهكة، لم تلحظ وجود «قمبيز» الذي لا يزال ساهراً في قلق المحب يشاهد شرودها، وحنها الذي لا يعرف له سبباً.. رغم أنها مرت من أمامه..!

ارتمت على فراشها مجهدة، وراحت في نوم عميق.. أخذت في أحلامها تنادي «حاروز» باحثة عن الأمان.. فيرتد إليها صوتها شريداً ممزقاً..

بعد أيام كان الجيش قد وصل إلى الواحات، وفي استقبالهم وقف العم «بوياء» مرحباً، وقد أعد ما أمكنه من مؤنة وماء لهم حسب الاتفاق، وحينها رأى «داشيتا» شعر بفرح وسعادة غامرة، وأسرع أطفال الواحة يلتفون حولها في سعادة، واحتضنتها الفتايات، وعاملها الجميع باحترام بالغ وكأنها كبيرتهم حقاً رغم أنهم كانوا يرونها للمرة الأولى، ولكن العم «بوياء» دربهم على ذلك، مما جعل «قمبيز» وكل من معه يطمنون تماماً أن تلك هي قبيلتها ويثقون أكثر فيما خططوا له مع

الوفد النوبي.. بينما أعد رجال الواحة لقمبيز وكبار قادرتة مائدة عظيمة، وقضى الجميع ليلتهم بين الطعام والشراب، والمرح لكن «قمبيز» ظل متعجباً وهو يراقب ارتباط «داشيتا» بالأطفال الذين احتوتهم وجلست بينهم تلاعبهم وتحكي لهم الحكايات، تبسم ساعتها، وتذكر أمه «نيتيس» التي كانت تحتويه بين أحضانها كل ليلة وتحكي له الكثير من الحكايات المليئة بقيم البطولة وفضائل النصر والتملك، تغرس فيه كل ما يمكن أن يغرس إنسان في أرض خصبة، وتقف كظله لتتربح نتاج ما غرسته.

لم يجد في نفسه القوة للبقاء متابعاً فقد هاجته كل أنواع الذكريات، وآوى إلى فراشه..

لم ينتظر هناك أكثر من ليلة ليربح جنده، رغم اعتراض «رامون» قائد الميمنة الذي كان يريد البقاء يوماً آخر لتجنيد مجموعة من رجال الواحات، وتسخيرهم لخدمة الجيش، لكن «قمبيز» الذي ذكرته «داشيتا» بوعدة بألا يدفع برجال الواحة لقتال أهلهم في الجنوب.. أصر على أن يتحرك الجيش على الفور معلناً أنه يسابق الزمن ليصل إلى هدفه، ولا يرغب في أن يركن رجاله إلى الراحة فينطفئ حماسهم قبل أن يخوضوا المعركة.. وأخيراً خضع «رامون» الذي لم يقتنع بوجهة نظر الملك، ولكن على مضض.

في الصباح وقف رجال القبائل في كل مكان يحملون الماء لسقايتهم، ويضعون جرار الماء على ظهور الدواب التي ستحملها.. مما ملأ قلب «قمبيز» بالسعادة، وشعر باقتراب النصر، لكنه أراد أن يتحرك الجيش ففتح باب عربته الحربية، وأشار إلى «داشيتا» لتركب بجواره فتبسمت شاكرة وهي تتراجع قائلة:

- مولاي لقد أديت دوري، وهذه قرיתי وذاك مكاني وقد رأيت بنفسك ولاء قومي.. ورأينا من عفوك وتسامحك ما أسرنا.. أما ما هو قادم بعد تلك الواحة فهي

حربك وليست حربي، فلما بقائي فيها.

أذهلته المفاجأة، فما كان يتخيل بعد أن ارتبط قلبه بها أن تنسحب من عالمه بتلك البساطة قال على الفور:

- لال ن أتركك هنا ستأتين معي.

ظهرت الدهشة على وجه العم «بويا» وعلى وجه «رامون» بينما شعرت «داشيتا» ببعض الرهبة لكنه أكمل قائلاً:

- أنت دليلنا حتى بلاد كوش وليس إلى الواحات فقط، وقد أوليتك شرف رفقتي في عربتي الحربية، وأنا فقط الذي أحدد متى تبقيين ومتى تغادرين.. قالها، وأعطاهم ظهره وهو يشير لجيشه بالتحرك.. فلم تجد بداً من أن تصعد إلى العربة الحربية، وبينما الجيش كان يختفي عن عيون أهل الواحة كان قلق العم «بويا» عليها يتزايد، فقد كانت الخطة أن تبقى معهم، ويتحرك الجيش في الاتجاه المرسوم له، لكن إصرار «قمبيز» على أن تكمل الطريق معه قد يعرضها للخطر.. بل ربما للموت.

وهكذا كان الجيش يبدأ بالمسير عندما يطلع الفجر، ثم يتوالى سيره طوال النهار حتى تضطره حرارة الشمس الحامية إلى الراحة والاستظلال للتزود بالطعام والماء ثم يتابع السير ثانية، حتى اقتربوا من واحة سيوة..

في ساعة الغروب استراح الجيش في منطقة ظليلة مليئة بأشجار النخيل ورغم أن الرياح اشتدت لدرجة غير محتملة، أمر «قمبيز» بالمبيت هناك حتى الصباح.. قالت «داشيتا» وهي تنزل من العربة الحربية:

- كونوا على حذر فهذه منطقة مليئة بالوحوش الضارية..

ضحك «قمبيز» مشيراً إلى كبار رجال الجيش:

- إذا فقد وجد رجالي عشاءهم.

ضحكوا جميعاً وارتفعت أصواتهم بالنكات والسخرية..

قالت بصوت هامس وكأنها تحدث نفسها:

- صدقت فهم أقسى قلوباً من الوحوش.

ورغم ذلك فقد تقدم «بيخاروس» قائد الميسرة نحو «قمبيز» قائلاً:

- مولاي، لما الراحة وهذه ليلة مقمرة، ومن السهل على الجيش أن يكمل سيره

ويتعرف على الطريق، وبهذا نستفيد من فترة الليل، واختفاء الشمس الحارقة، في التقدم لمسافة كبيرة دون عطش.

لكن «قمبيز» رفض الأمر في حدة، وقال وهو ينزل من عربته:

- أنت تعلم يا «بيخاروس» أنني أحب أن أواجه كل شيء، حتى حرارة

الشمس، ولا تقلق فقد زدنا أهل الواحات بالكثير من الماء، كما أن في طريقنا الكثير من القبائل، والجيوش الذي سيصير كل ما لديها غنائم لنا.

تبسم «بيخاروس» وأعجبه ثقة سيده في النصر، وهو الذي كان دائم الانبهار به، ومن أشد المخلصين له أيضاً.. أما «ريمون» الذي كان يطمع في أن يحصل على بعض الخدم، والجواري، من أهل الواحات كان ضيقه يزداد لعدم اهتمام «قمبيز» بمشاورته كما كان يفعل في فتوحاته القديمة، وكأنها اكتفى باتفاقه مع تلك النوبية التي تدلهم على الطريق، والتي شاع بين الجند أنها ساحرة، وكاهنة أيضاً.. حتى أنه بدأ يشعر بأن سحرها يسيطر على ملكهم، ووجد في نفسه رغبة شديدة في التخلص منها عند أول فرصة قادمة.



سطوته، ماذا ذراعيه باستسلام العاشق، و لا يمكن أن يخطئه سهمها القاتل هذه المرة...!!



وفي سرعة أذهلته قفزت نحو قوسها ووجهت نحوه أحد سهامها

وقد عادا معاً إلى خيام الجيش، لم ينس «قمبيز» أن يجرد النمر من فراءه، وعند باب خيمتها، أهداه لها، فهو صيدها..

أما «رامون» فلم ينم ليلته، وهو يرى أن علاقة ملكه تتطور مع تلك الساحرة التي تقودهم إلى المجهول.. فازداد حقداً وحنفاً عليها.

مع شروق الشمس قاد «قمبيز» جنوده داخل الصحراء، المنبسطة الممتدة إلى مدى البصر، تاركاً خلفه تلك الواحة الظليلة كثيرة الأشجار التي كان سيقضي فيها نحبه بالأمس لولا سهامها التي لا تخطيء، كان يحمل في داخله نحوها حباً لا حدود له، رغم حيرته في صمتها، وحزنها الدفين الذي يكاد يفتك بفؤادها..

جحظت عينا «قمبيز» وهو يرسل بصره إلى بحرٍ من الرمال الناعمة الملتهبة نهاراً بحرارة الشمس، قال وهو يتذكر ما فقد من جنده في هذه الرمال بالقرب من سيوة:
- هنا التحدي الحقيقي ما بين الإنسان، والطبيعة الهائجة.

ثم التفت نحو «رامون» وقال علينا الحذر، واجعل الجنود يسيرون في صفوف متباعدة، وليقترب أكبر جزء من الجيش نحو المنطقة الصخرية.

في هذه الأثناء أشد زئير الريح، وهبت العاصفة الرملية من حيث لا يدرون فكل ما شعروا به بعد دقيقة من هبوب الرياح أن الصحراء نفضت عن نفسها ملايين الأطنان من الرمال وحجبت الشمس، وجعلت الهواء سقيماً، حيث كانت الرمال الناعمة تتسلل إلى الطعام، والشراب، والعيون، والأنوف، والجنود يغمغمون ويتذمرون، حقاً للصحراء قواها الخفية..

كانت قوة العاصفة تشتد لحظة بعد لحظة، قوتها تفوق الخيال..!! تطيح بالعجلات الحربية، وتزحزح الأرض تحت أقدام الجنود والخيول..!! تلعب بمصائرهم، وكأنهم أوراق الشجر في فصل الخريف وتُسقط بما شاءت من العربات أسفل الوادي..

حاول «قمبيز» السيطرة على جيشه، وسط الرياح العاتية التي تعيق مسيره، بينما «أحكم» «بيخاروس» قبضته على جنود الميسرة، وهم الأقرب لبحر الرمال، ودفعهم إلى الاحتفاء بعربات المؤنة، ودفعها بقوة أمامهم حتى لا تضيق في الرمال الناعمة، و«رامون» كان يقود الجنود بعنف ووعيد شديد للمتخاذل والخائف، مليئاً بذلك لأوامر «قمبيز» الذي نجح أخيراً في الوصول بجيشه إلى منطقة جبلية لتحجب بعضاً من أكوام الرمال التي تطيح بكل ما في طريقها، ومرت فترة الظهيرة كاملة في هذا الصراع الشديد، بين الموت والحياة، فقد فيها أكثر من خمسين جندياً حياتهم..

وفجأة هدأت ثورة الريح كما بدأت، وساد الصمت، وكأن كل ما حدث لم يكن سوى كابوس طويل مروع.. تابع بعدها الجيش سيره وسط الجبال بعيداً عن بحر الرمال.



obeyikan.com

انهيار الأسطورة



استراح الجنود أخيراً بعد ليلة لا هوادة فيها، وصراع عنيف بين قوى لا يمكنهم هزيمتها أو السيطرة عليها.. ظلوا بعدها يحصون ما فقدوا من خسائر وهم يصلحون ما تحطم من العربات حتى بدأ التعب يسيطر على الجميع، وأخذت الحركة الدءوب تركز إلى السكون..

لكن عيوناً حذرة كانت لا تزال تتابع، وترصد كل خطوة لهذا الجيش الضخم وتنتهز الفرصة كل مساء لتنهى مهمة ليست سهلة...!! إنها عيون «حاروز» ورجاله الأشداء.. فمنذ وصول الجيش الفارسي إلى الواحات وهم يتابعونه...!!

يسرون النهار، بين الجبال والوديان بمحاذاة الجيش حتى إذا ما وصلوا ليلاً إلى مكان استراحته، وإلى مؤخرته بالتحديد حيث قوافل المؤن عمل هو ومن معه على فك رباط الدواب المحملة بالطعام، وتحريك ما استطاعوا منها نحو الوادي، ثم الاختفاء مرة أخرى بين الجبال، ومتابعة الجيش في انتظار ظلام ليلة قادمة ليكملوا ما بدأوه في الليلة السابقة، وفي كل صباح حين تشتعل شمس النهار فوق الرؤوس، وتجعل الرمال كالجمر بلهيب حرارتها يجد الجند أن الكثير من قوافل المؤن بها تحمله من طعام وماء قد ضلت، وسقط بعضاً منها في الوادي العميق، ويدب الهرج والمرج

النصر..

لكن «رامون» الذي أصبح متربصاً بها، وقد شعر بأنها هي وحدها التي وراء كل هذا الشر المحيط بهم، قد قرر أن يقتلها، ووجد الفرصة سانحة، بانشغال «قمبيز» عنها في السيطرة على جيشه الذي بدأت علامات التذمر تظهر عليه.

لم تكن «داشيتا» غافلة عن نظرات الحقد والكراهية التي يحيطها بها «رامون» منذ البداية، وصارت تحشاه، وتشعر بأن صبره قد فرغ، منذ رأته يراقبها هي و«قمبيز» يوم أنقذته من النمر، يومها شعرت بأن الخطر يحيطها، وازدادت حرصاً على حرص بل صارت تتجنب الوجود بجوار «قمبيز» في أغلب الأوقات التي يستريح فيها الجند، وفي أحيان أخرى كانت تشعر بأن المكان الوحيد الأكثر أمناً هو أن تكون بجواره، وبينما هي في طريقها إلى خيمتها في مساء أحد الأيام عند استراحة الجيش وقد تركت سلاحها فيها، امتدت يد «رامون» المختبيء خلف الخيمة لتكتم فمها، وتكتم صرختها، حاولت بصعوبة الإفلات منه، لكنه كان قويا إلى حد كبير.. ضغط على فمها بقوة، وهو يكبلها بيديه، ويسحبها خلف صخور الجبال، بعيداً عن العيون، وعندما تأكد له أنه ابتعد بما يكفي، وأن صوتها لن يصل إلى الجيش، ألقاها على الأرض بقوة، ونزع سيفه الضخم من غمده، وهو يطلق ضحكته الساخرة قائلاً:

- سأنهي سحرك بسيفي، بعد أن كاد يقضي علينا..

شعرت «داشيتا» بأنه لا مفر من الموت، مهما حاولت التماسك.. وفي محاولة يائسة قبضت بكومة من الرمال وألقته في وجهه فأصابت عينيه، وكانت فرصتها الأخيرة هي الفرار والجري بأقصى سرعتها وسط الجبال بعيداً وأخذت تصرخ مستنجدة، وهو يلاحقها بإصرار، ولكنها كانت قد ابتعدت كثيراً عن الجيش، ولم يسمع صوتها سوى صخور الجبال الصماء، لكن «رامون» الذي بدأ يُدرك أنها أخف

وأسرع منه، لم يجد حيلة سوى أن يقذفها بالصخور، وهو يجري خلفها، و كان حظه موفقاً حين أصابت قدمها صخرة، فسقطت على الأرض متألماً، مما أتاح له الفرصة للحاق بها وقبل أن يرفع سيفه ليقضي عليها سمع صوتاً خلفه يقول:
- أتتجراً على قتل امرأة أيها النذل الجبان..

وقفت كل شعرة في رأسه من هول المفاجأة، والتفت في فزع، ليرى أمامه سيفاً موجهاً نحو عنقه.. تراجع خطوات ليستعد للمواجهة، بينما أعطاه «حاروز» فرصته ولم يشأ أن يقضي عليه مباشرة، رغم أن هذا كان أسهل شيء ساعته، لكنه أكمل حديثه قائلاً:

- قم وواجه الرجال إن كانت لديك الشجاعة..

اعتدلت «داشيتا» وقلبها يرفرف من السعادة، وهي ترى «حاروز» منقذها الدائم، يأتي إليها في أقصى وأشد لحظات حياتها، بعد أن سمع صراخها، هو ورجاله، وهم يتخفون وسط الصخور ليصلوا إلى مؤخرة الجيش كعادتهم، لكنه حين تعرف على صوتها، أخذ يجري نحو الصوت في جنون، حتى أن رجاله لم يلحقوا به، ووصل في تلك اللحظة الفاصلة..

هجم عليه «رامون» بسيفه بقوة لكن «حاروز» قفز برشاقة إلى الخلف، وعاجله بضربة قوية، تلقاها «رامون» بسيفه، وهو يهجم عليه كالثور.. لكن «حاروز» الذي أراد أن يستفيد من غضبه ليجعل ضرباته تزداد طيشاً قال له:

- كنت أظن أن سواعد الفرس أقوى من سواعد نساء النوبة.. هيا أيها العصفور الضخم، أرنى إن كان لديك شيء أفضل.!

أشعلت تلك الكلمات ثورة «رامون» فأخذ يضرب بقوة كالمجنون، وفي كل مرة كان سيفه يطيش، أمام رشاقة «حاروز» وفنه في صد الضربات، كان رجال «حاروز» قد وصلوا في أثناء المباراة، وبإشارة منه تراجعوا ولم يجرؤا على الاقتراب، فهذا نزال بين متنافسين.

وحينها أراد البطل أن يضع النهاية قال، وهو يضرب ضربته القاضية:

- الآن أريك كيف أنتقم ممن تجرأ على المساس بقلبي.

قالها، وتهاوى جسد «رامون» على الأرض ليلحق برأسه الذي سبقه متدحرجًا نحو الصخور.

هتف قلب «داشيتا» ملييًا عند سماعها لكلمته الأخيرة.. قامت مليية لنداء يده الممدودة إليها، قالت ودموعها تسبقها:

- لم أكن أحلم أن أراك يا حارسي.

- لكن هذا كان حلمي في كل لحظة.

- اشتقت إليك كثيرًا يا «حاروز» لقد شعرت بأنني أسير وسط غابات من وحوش لا ينتمون إلى البشر، إنهم جميعًا يملكون قلوبًا غليظة أقسى من الصخور، ولولا شعوري بقلبك يحيطني بحبه وحنانه لكانت الحياة بلا حياة.

«قالتها وهي تضع رأسها على صدره».

لم يكن «حاروز» يحتاج لأكثر من هذا ليشعر أن قلبه يرفرف ويطير وكأنها نبتت له أجنحة من نور، لم يكن يحتاج لأكثر من تلك البسمة التي ملئت وجهها ليجد في نفسه القوة التي يمكنه بها أن يتحدى بها العالم..

رفعت رأسها في هدوء و بدأت تنفلت كمن ينسحب من موطن ضعفه..!!
قالت له مودعة:

- والآن يجب أن أعود قبل أن يكتشف «قمبيز» ورجاله غيابي..

لم يستطع أن يفارق يدها، قبض عليها وهو يقول:

- لا آمن عليك بينهم، بعد أن حاول هذا قتلك، تعالي معي فقد أدبت أهم
جزء في مهمتك، والباقي هو دوري أنا، وأنا أعرفه جيدًا، وقادر على القيام به على
أحسن وجه..

سحبت يدها من يده باسمة:

- مازال الجزء الأهم متبقيًا، فلا أريده أن يتراجع قبل أن تدمره صحراؤنا..
وأنت أيضًا بقيت أمامك المهمة الأكثر خطورة..كن حذرًا واحرص على أن تخفي
جثة «رامون» فهو قائد الميمنة، و سيُجن جنونهم لفقده.

- لا تقلقي فلنسنا بحاجة إلى إخفائها، لو أخفيناها لما تحرك هذا الجيش من
مكانه قبل أن يجد في البحث للوصول إلينا، فهم يعانون الجوع والخوف من أشباح
لا يرونها، تخطف طعامهم، وتسكب ماءهم..

- وماذا ستفعل إذا..

- رجالي سيحملون جثته إلى أقرب مكان للجيش، أما رأسه فأنا أعرف أين
أضعها، وسيظن «قمبيز» أن ما حدث هو خلاف في جيشه، وصراع بين قادته.

- أنت محق تمامًا، ولكن كن حذرًا.. وداعًا.

- لكن.. لن أتركك فأنت..

وضعت يدها على فمه:

- لا تقل شيئًا، فقد قلت كل شيء منذ قليل..

قالتها، وأسرت تعدو بين الصخور في اتجاه الجيش.. أسرع خلفها ليحميها، فأشارت له مودعة.. راقبها من بعيد حتى اطمأن على وصولها إلى خيمتها.. عاد بعدها، وقام هو ورجاله بحمل جثة «رامون».

في الصباح كان «قمبيز» في قمة ثورته عند اكتشافه لاختفاء قائد الميمنة، وبذل الجميع جهودهم بحثاً عنه دون فائدة.. دب الخوف والفرع في كل أفراد الجيش.. شعروا أنهم يجاربون عدواً خفياً، لكن «بيخاروس» وحده هو الذي شعر بالسعادة والراحة لتخلصه من غريمه المتغطرس.. وهو يجد نفسه أخيراً القائد الوحيد المسئول عن الجيش بعد ملك الفرس، أخذ يداعب قلادة الحظ المعلقة في رقبتة، ويتذكر زوجته الجميلة، وتخيل نفسه وهو عائد إليها يقود أعظم جيش في العالم، وعلى الفور بدأ يفرض سيطرته على كل شيء، وقد لاحظ «قمبيز» ذلك وبدأ يشك أنه وراء اختفاء «رامون» وحرص على أن يضع رقابته عليه، خاصة حين وجد الجند رأس «رامون» بين الصخور في مكان قريب من خيمة «بيخاروس» الذي عند رؤيته للرأس شعر بشيء من الرعب، وغرق في عرقه كمن غاص في بحر من الماء، لكن «قمبيز» الذي خاف أن يفقد الجيش تماسكه وعد بالتحقيق في مقتل «رامون» وبدأ يصدر أوامره الشديدة الصارمة للجيش بالتحرك في أقصى سرعة، بعد أن وضع القائد «سباركتين» قائداً للميمنة، وما أراد بذلك إلا أن يفقد «بيخاروس» فرحته، ويعلمه أن الأمر لا يمكنه أن يتزعزع من يده.. مما أشعل نيران حقه التي لم تتعد ظلمة الليل وانطفأت عند أول ضوء، بعدما أقنع نفسه بأن تيممة الحظ أنقذته من موت محقق واتهام بقتل «رامون» وفي الصباح كان يقوم بدوره في تحريك الجيش وقيادة الميسرة، وتوزيع ما تبقى من حصص الطعام على الجند، وذلك اتباعاً لأوامر «سباركتين».

ونفذ مخزون الطعام، ونفذ معه صبر الجنود، واشتد غضب، وحيرة «قمبيز» واستمر الجيش في المسير إلى أن ظهرت قبل غروب الشمس على البعد واحة كثيرة

النخل.. وكان ظهورها كفيلا بأن يزيد من اندفاع الجيش نحوها، حتى أنهم وصلوها عند حلول الظلام ..

كانت لحظات صادمة بحق، أن يرى الجائع العطشان واحة ظليلة يحيطها النخيل، وحينما يصلها، يجدها خرابًا محترقة الأشجار خالية من الثمار، مردومة الآبار.. كل هذا كان كفيلا بتحطيم ما تبقى من معنويات الجيش.. وقضى الجند ليلهم في محاولات يائسة لحفر الآبار المردومة والوصول لبعض الماء الملوث بالتراب، ففيه المحافظة على الحياة.. ومع مرور الأيام تكرر الأمر، وما زاد «قمبيز» جنونًا وجعل نوبات الصرع تزداد عليه ليلاً وهو في خيمته وحيداً هو أنه كلما مر جنوده بقرية أو مدينة، لم يجدوا جنداً يحاربونهم، لاشيء.. سوى أشجار محترقة، وبيوت خاوية، وبعض العجزة والمرضى ممن تركهم «حاروز» ليخدعوا الجيش، بقولهم:

- أن جيوش ملك كوش وكل الرجال الأقوياء يحرقون قراهم ويفترون خوفاً ورعباً كلما سمعوا بقدم جيش قمبيز..

فيزداد حينها اندفاعاً بجنده لعله يلحق بالجيش الفار ويسحقه، فيكون ما معهم من طعام قوتاً له هو وجنده، فيكمل ساعتها سيره وهجومه ليؤكد نصره واستيلائه على البلاد..

لكن الاندفاع كان وسط صحراء لا تعرف الرحمة، بمن لا يرحم.. وأخذ الجوع والعطش في إهلاك الجنود والخيل، والنيل منهم، قبل أن تصل سيوفهم ورماحهم إلى شيء من هدفها. ولم يبق أمامهم طعام سوى ما تبقى من ورق الأشجار المحترقة، والأشواك الحادة..

بدأ «قمبيز» في الانهيار، وخارت عزيمته، وهو ينظر إلى ما تبقى من صحراء في اتجاه الجنوب، ويراقب نظرات التمرد في عيون جنده.. كان عليه أن يتخذ قراراً

آخر، قرارًا فاصلاً بين الحياة والموت، قرارًا لم يجرؤ على اتخاذه يومًا.. إنه قرار التراجع والعودة..

تلك العودة التي سيدفع ثمنها غاليًا، فهو يعرف أن طعام جنده سيكون ساعتها هو لحوم خيولهم، وربما يقتربون ليأكل كل عشرة واحدًا منهم.. يالها من هزيمة.. هزيمة بعد معركة طويلة، لم يُشهر فيها سيفًا..!! ولم يقف في وجهه جيشًا إنها الصحراء تهزمه مرة أخرى.. أطلق أوامره بذلك إلى «بيخاروس» الذي كان ساعتها قد وصل إلى أعلى مراحل اليأس، والإرهاق.. فلم يجد مفرًا من تنفيذ الأمر، وبدأ الانسحاب والتراجع..

كان الليل قد بدأ يُرخي سدوله وتتمشى في الجوّ وحشة تبعث الانقباض والاضطراب، و كان عليه أن يستمع أخيرًا إلى رأي «بيخاروس» ويربح الليل في العودة، قبل أن تأتي الشمس لتلهب حناجر جنده بالعطش..
قالها في مرارة:

- الزحف ليلاً كما تفعل الذئب الجائعة المدعورة..

رآها واقفة أمامه، وفي عينيها نظرات النصر.. وابتسامة السخرية..

نظر إليها بقلق حذر.. أصابه الدهول، وغامت الدنيا في عينيه، وتوقع شرًا غامضاً يوشك أن ينقض، إنه شيء أفسى من هزيمة الصحراء له، بل شعر بالكارثة تظلمه، وتغشى حياته، ولكنه تماسك..

نهض وتقدم بوضع خطوات نحوها، كانت الأفكار تموج في رأسه تتدفق وتندفع، مديده نحوها قائلاً:

- أنا عائد يا «داشيتا».. كلنا عائدون، قبل أن تهلكننا الصحراء.. لماذا تبتعدين عني..؟ ألن تأتٍ معي.

- وحلمك، ألن تكمله أيها الفاتح العظيم..؟ ألن تمتلك العالم أيها الرجل

زوجي، الذي فقد ذراعيه وروحه، حتى لا تسقط راية بلاده، أما أنا يا سيدي فقد فقدت ولدي الذي كنت أحمله في بطني، وأنا أحاول اللحاق بهم، هل علمت الآن من أنا..؟ أنا هي الأميرة «داشيتا» ابنة أخت الفرعون المقتول «ابساتيك الثالث»..

شعر «قمبيز» بأنه يفقد كل احساس بالمكان والزمان، ووجد صعوبة في التنفس وأخذ العرق يتصبب من جبينه، رغم برودة ليل الصحراء، رفع حاجبيه متسائلاً:
- وكيف تقولين أنك هزمتيني، وأنت بجواري.. وكيف أستطعت أن تخدعيني طوال هذه الأيام و..

تبسمت أخيراً، وتحدثت في لكنه ساخرة:

- لقد خضت ضدك حرباً لا دماء فيها، فأنا من دبرت ضياع قوافل المؤنثة، و كل قرية تمر بها، كان رجالي يقومون بإخلائها قبل وصولك، لأدع رجالك الجائعين العطشى إلى شرب الدماء يلتهمون رمال الصحراء، بدلاً من أشلاء الأبرياء.. لقد هزمتك يا سيدي وأجبرتك على خيار من اثنين، الموت أو الانسحاب.. ويجب أن تعترف بذلك، فلا مفر، وها أنا بين يديك، وأعرف مصيري..



لقد هزمتك يا سيدي و أجبرتك على خيار من اثنين، الموت أو الانسحاب.. ويجب أن تعترف بذلك، فلا مفر.

لم يستطع أن يتحرك، أن يعاقبها، أن ينتقم..

كان ما يزال رغم كل شيء يشعر بحبٍ عنيف نحوها، حب لا يضاهيه حب، وهي التي وهبته حياته حين أنقذته من أنياب النمر، وزاده قوة وتعلقًا بها ما سمعه أخيرًا فهي ليست خائنة كما ظن بها، وهذا وحده كان كفيلاً بأن يججب الحاجز العنيف الذي يفصله عنها.. قال وهو ينحني لها إجلالاً:

- من الشجاعة أن يعترف المهزوم، بهزيمته، وينحني للمنتصر، وقد تعادلنا أخيرًا رغم كل شيء.. وأنا أدعوك رغم ذلك إلى رفقتي، فكما اعترفت لك بنصرك، أعترف أيضًا بأنني ما أحببت غيرك.. وأعلم أنك تبادليني هذا الحب الذي يجعل لكل دقة في فؤادك صداها القوي في فؤادي، فلا تحاولي أن تغالطيني، أو تغالطي نفسك، تعالي معي، وسأجلسك بجواري على العرش لتحكمي العالم معي.

تراجعت خطوات إلى الوراء وقد بدأت الدموع تترقق في عينيها..

قالت بكلمات مختنقة:

- أحكم العالم.. يالها من كلمة فقدت معناها، كان من الممكن أيها الملك أن تربح قلبي حقًا لو كنت أقل طموحًا، وأكثر رحمة.. فأنت قاتل قومي.. مهما ادعيت أنك منهم، فأنت مجرم أثيم تجري دمائهم جميعًا دافئة بين يديك..

في لحظات عاد إلى «قمبيز» سموحه، وتفتت ضعفه، قال في لهجة ملؤها التحدي:

- قد يكون هذا الذي تقولينه حقًا بالنسبة لك ولقومك.. أعلم ذلك، ومهما فعلت فلن أستطيع أن أغير هذا الأمر أو أجمله، لكن ما تغفلين عنه هو أنني مهما حاولت الانتساب للمصريين، فهذا لا يجعلني أنسى أنني فارسي، وأن بابل هي وطني وحيي الأول، ومن بها هم شعبي، الذي رفعتني وجعلني ملكًا بعد أبي، وأنا بالنسبة لهم الفاتح العظيم، مذل الشعوب، وباني الحضارة، فحلتم كل فارسي في بلادي أن يلد ولدًا مثلي.. وقد صار نصف من يولدون في فارس الآن اسمهم

«قمبيز»، أما مجدي فسيذكره شعبي أنا.. لا شعبك أنت.. كما مجدتم أنتم فراعنتكم وأسميتموهم عظماء و فاتحين، بل بالغم أحياناً فعبدتموهم..
أفلتت منها صرخة مختنقة وهي تقول:

- والضحايا والدماء.. النساء والأطفال، كل هذا الثمن من أجل المجد.

- إذا كان جنودي قد عذبوكم و أذاقوكم ذل الاضطهاد، فإن جنودكم قد قسوا على الكثير من البلاد ولم يرحموا شعوباً جاورتهم ولم تخضع لسלטانهم بل داسوا على كرامة المغلوبين بنعالهم.. إنها الحرب، يا سليلة الفراعة العظام.. نعم الحرب اللعينة تلك الفترات الهابطة في حياة البشرية.

مرت لحظات من الصمت.. أحنث رأسها لتخفي تأثرها، وداعب بسيفه الرمال تحت قدمه.. رفع أخيراً رأسه، لم يحاول في أول الأمر أن ينظر إلى وجهها، ولكنه فيما بعد اختلس نظرة ليري قسماتها أمام هذه المواجهة القاسية، فإذا هي تختلس إليه نظرة هي الأخرى، فتقابلت النظرتان، ثم ارتدتا سريعاً إلى الخفض والانكسار، وأحس كلاهما بكل ما جاش في نفس صاحبه..!! قال لها بشيء من الانكسار المشبع بالاحترام:

- لقد انتصرت أيتها الأميرة المصرية، ونجحت في تلقيني درساً، علمتني أن ليس باستطاعتي نيل كل ما أحلم به، مهما ملكت من الأرض، فامتلاك قلبك كان آخر أحلامي، وهذا ما أعرف أنه لا يمكنني إدراكه..

أعطاها لجام عربته الحربية، وهو يحاول أن يبتسم ليخفي دموعاً محتبسة تحاول أن تنفلت.. قال:

- أنت تعرفين طريقك جيداً أيتها الزهرة السمراء التي هزمت أقوى ملوك الأرض، وأخذت قلبه أسيراً لديها.. وداعاً.. كم تمنيت أن يكون بعده لقاء.

انتزعت ابتسامتها من بين دموعها قالت، وهي تخفي وجهها وتقفز على ظهر العربة الحربية:

- وداعًا أيها الملك النبيل.. وداعًا لا لقاء بعده..

وقف على ربوة مرتفعة يراقب ابتعادها وسط الظلام.. وبعد مسافة قريبة، توقفت، والتفتت نحوه مودعة..

رفع يده لها تاركًا سيفه يسقط أرضًا..

ولم ينزلها حتى ذابت بين المسافات.....

عاد بعدها بما تبقى من جيشه نحو منف، موحش النفس، تجثم عليه الكآبة، ويغشى صدره الوجوم، يتقلب بين مرضه وجوعه هو وجنده.. وفي أعماقه سؤال غامض لا يسمح له بالظهور، تراه أخطأ طريقه هذه المرة، لقد أحسّ بالطعنة وعرف أنه فقد الحلم.. لم يكن يدري ساعتها لماذا أخذ يتردد في أذنه صوت غريمه القديم فرعون مصر أبسمايك الثالث»:

- أيها الملك الفارسي اقرأ البرديات، وما كُتب على جدران المعابد.. لترى تاريخنا.. ستدرك ساعتها أنه لم يحتل هذه الأرض أحد وبقي فيها، فهي أرض طيبة تحتضن أبنائها، ومن أحبها فقط، وتلفظ كل من اعتدى عليها وتقهق قاهرها.. فلا يجد المعتدي له فيها سوى قبر يؤبه.

أما الأميرة «داشيتا» فقد انطلقت بعربته الحربية، في طريق تعرفه جيدًا، وجدت في نهايته «حاروز» فأسرعت بلا وعي نحوه، ولأول مرة تلاقى أيديهما مشتاقة، وتشابكت أصابعهما بحرارة.. رغم نظرات الصمت.. وانطلقا معًا ولاحت على وجهيهما ابتسامة، لا تساويها جمالاً أية ابتسامة..

وقد عاشت «داشيتا» طويلاً، وكان لها الكثير من الأحفاد، جمعوا بين سمرة الوجوه، وطيبة القلوب، عشقوا الأرض، وزرعوها حُبًا، وقمحًا، وحضارة، وحكايات جميلة جمعت بين شعبيين من أنقى شعوب الأرض، يجري بين شرايينهم نبيل واحد.

تمت بحمد الله

عبد الرحمن بكر